# أحببتك قبل أن أراك

# أحببتك
# قبل أن أراك

نرميـن عِـــشرة

المكتبة العربية
للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: أحببتك قبل أن أراك
اسم الكاتب: نرمين عشرة
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: حسن العربي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 11059
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85718 – 0 – 6

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

# إهـــداء

إلى أمي "فاطمة زيادة" رمز الحكمة والصمود، التي علمتنا أن اللجوء إلى الله هو أقوى سلاح بشري، وأن الإرادة تقهر أيَّة هزيمة.

إلى أصحاب الأحلام.. يومًا ما ستحقق

## ( ١ )

لم تسعني الأرض فرحًا وأنا أودّع كليتي التي تخرجت فيها توًّا، فردت ذراعي وأنا أتنفس الصعداء، وتركتهما يرفرفان في الهواء الطلق الذي تتخلله خيوط أشعة الشمس المنسدلة، على أرض الجامعة الأمريكية القاطنة في القاهرة الجديدة، حيث درست علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية، ربما تتخيل أنها كانت فرضًا عليّ لشدة سعادتي بالتخرج، ولكن في الحقيقة كنت أنتظر تلك اللحظة لأبدأ حياتي الجديدة التي خططت لها منذ سنوات، وكان يعيقني عنها أبي الذي رفض أن أبدأ حياتي المهنية وأنا ما زلت على قيد الدراسة.

ألتفت حولي لأجدني وسط قرنائي الذين شرعوا في استرجاع الذكريات المبهجة التي قضيناها خلال سنوات الدراسة، لكني كنت أكثر شغفًا لأن أتحدث عن المستقبل فقط، فالماضي قد انتهى بكل حلوه، ولكني أتشوق إلى حلاوة الغد، أشتاق إلى تحقيق ذاتي واستقلاليتي، تجولت بعيدًا لأرتكن على سيارتي الحمراء التي حتما سيغيرها أبي لي مكافأة تخرجي، شردت بعيدًا حيث عالمي الجديد. فهأنذا أرتدي بذلتي الكلاسيكية،

وأخرج من سيارتي الزرقاء الفارهة لأستعد لعملي في أكبر مكتب للاستشارات الأسرية.

لم ألتفت لصوت من بعيد يناديني "بيري" حتى دنا مني: "إلى أين وصلتِ سيدتي؟"، التفتّ لأجده فادي، هذا الشاب الوسيم متوسط القامة مفتول العضلات ذو الملامح الناعمة، والأعين الملونة، والشعر البني الناعم، رددت عليه بابتسامة ساطعة وعين برّاقة: "أخيرًا يا حبيبي، لقد تخرجنا وعليك أن تحضّر نفسك لإجراءات الشراكة، لا وقت لنضيعه."

- أية شراكة منهما؟ الزواج أم مكتب الاستشارات؟
- الاثنين يا حبيبي لا داعي للتهرب.
- تهرب؟! لو كان الأمر بيدي لاختطفتك حالًا إلى بيتي لأتزوجك، ألا تحسبين تلك السنوات الطويلة التي أضعناها؟ لقد حققنا رقمًا قياسيًا في الخطبة بلغت ٢٢ عامًا تقريبًا.

بضحكة عالية رددت: حقًّا، لقد خطبتني والدتك لك منذ مولدي، وُلدنا في يوم واحد وفي مستشفى واحد، لم أخطُ خطوة واحدة من دونك، ولا أتخيل أن أفعل ذلك يومًا.

- لن أتركِكِ حبيبتي مهما حدث، ستظلين شريكتي الوحيدة في كل شيء.

اقتربت يد فادي اليمنى لتحتضن يدي في رفق وحنو يغمرني بالدفء والراحة، التفتت عيناي له بلمعة تخبره أنني أسعد مخلوقة في هذا الكون، وقلت له: "هيا بنا نرحل من هذا الماضي لنخطط للمستقبل".

- اليوم يومنا؛ فلنحتفل.
- لا، أريد أن أسرع لأخبر أبي ليستعد بما وعدني به.

استقللت سيارتي الفارهة، وانطلقت مسرعة إلى حي الزمالك حيث أقطن به مع والدي ووالدتي منذ إدراكي الحياة، فلم أعرف سواهما؛ فليس لي إخوة ولا أعمام أو عمات، ولا أعرف عن عائلة أمي سوى أنها في الأصل من إحدى قرى محافظة المنوفية.

رحل ذهني بعيدًا لأتذكر ذكريات طفولتي الهادئة، فقد كنت طفلتهما الوحيدة المدلّلة، وربما ما زلت حتى الآن أتمتع بطفولتي المدلّلة، ولكن عليّ أن أنضج قليلًا حتى أستطيع إدارة مركز الاستشارات الأسرية الذي سيؤسسه لي أبي فور تخرجي كما وعدني، عليّ أن أعيد تفكيري في الحياة، وأن أصير أكثر جدية، أود الاعتماد على ذاتي في بناء مستقبل مبهر وناجح.

أدركت الواقع وأنا بين أحضان النيل على "كوبري" بمدخل الزمالك لأشم رائحة النهر العطرة، وأستنشق الهواء النقي البعيد عن الزحام، ولكن فرحتي تلك لم تكتمل، يبدو أنني قد حسدت الطريق الذي أراه سلس التحرك عليه، فور هبوطي لأسفل الكوبري صدمت من منظر

السيارات المتوقفة، وظللت أنتظر ظنًّا مني أنه أمر اعتيادي، ولكني اكتشفت أنه ليس كذلك، فصوت صافرة سيارة الإسعاف يقترب، وصوت ضجيج البشر يتزايد من حولي، أصوات متداخلة ما بين صرخات بشرية واحتكاك المعادن بالطريق، أشمّ رائحة الدماء، يبدو أنه حادث بشع، قررت ترك سيارتي والتجول حتى المنزل، فهو ليس بعيدًا، وليست لدي قدرة على استكمال هذا الشعور البائس الذي حلّ بي.

لم أمض كثيرًا حتى وصلت إلى الزحام المتكدس في محيط الحادث، لم أرد النظر إلى هذا المشهد المهيب، فأنا أخشى الموت وأبغض رائحة الدم، اجتذبني صوت مرتفع ينادي "أوسعوا الطريق"، إنه سرير الإسعاف يعبر بين أكتاف الواقفين وهم يضربون كفًّا بكفٍ، ويرددون: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، نظرت بطرف عيني لأنتبه لوجه أمي الغارق بالدماء وهم يغطونه بملاءة بيضاء، تخشب جسدي مكانه، وشُل عقلي، وتوقف فؤادي للحظات عن النبض، لم أعد أدرك من أنا وماذا يحدث من حولي. إنها الصدمة التي توقف الحركات وتحجب أشعة الشمس، مرت ثوانٍ قبل أن أندفع نحو السرير الذي يحمل أمي لأعانقها بشدة دون خوف من رائحة الدم أو خشية من الموت، هذا العناق الذي لم يستمر طويلًا شعرت أنه عمر بأكمله، صعدت خلفها في سيارة الإسعاف وما زلت صامدة، وكأنني جسد بلا روح، كل ما كان يهمني أن أظل متشبثة بها حتى اللحظة الأخيرة.

ارتجف قلبي فجأة عندما طرق أذني صوت صعود سرير آخر للسيارة، اقشعرَّ جسدي وانتابني إحساس عميق بالخوف، دفعني لأنظر إلى وجهه ليصيبني الهلع، إنه أبي يا ويلتي! أسرعت تجاهه وانهالت مني دموعي فصارت كقطرات المطر الجارفة التي تغسل الدماء المبعثر على وجهه، وخانني صوتي الذي صرخ "لا تتركوني". عقلي هذا الذي شُل من دقائق، عاد ليفكر في كل شيء: "كيف حدث ذلك؟ لماذا الآن؟ ماذا سأفعل من دونهما؟" لا أستطيع التفكير في كل الأسئلة المريبة التي تدفعني أن أبحث عن طريقة لألحق بهما بها، فجأة وجدت نفسي أغوص في صدر أبي أتحسس نبضه، ربما ما زال حيًّا وقد أخطئوا التشخيص! دفنت رأسي تحت الغطاء وظللت أضغط وأضغط لعلّني أسمع صوت نبضة تائهة في صدره، ولكني فشلت، فوجدت نفسي أجهش بالبكاء دون أن أدري، ارتكنت برأسي على صدره وكأنه يمسح دموعي المنهالة، شعرت بطمأنينة الطفل المستكين في حضن أمه، فألصقت وجهي بوجهه، وقبلته قبلة الوداع وأنا أشعر بتهدئة سير السيارة، عدت إلى سرير أمي لأحتضنها بكل طاقة لعلي أستمد منها قوة تكفيني للبقاء على قدمي، ولأطبع على جبينها قبلة تؤنسني في غربتي وحدي.

فتحوا سيارة الإسعاف، وأخذوا أمي وأبي إلى داخل المستشفى ليخبروني بأنهم سيودعوهم في المشرحة بإذن من النيابة العامة، ودوّنوا لديهم جميع البيانات الخاصة بهما في دفتر كبير بالمشرحة، وأبلغوني أنه يمكن

تسلم الجثامين غدًا بعد إصدار قرارٍ من النيابة العامة بتسليم الجثمان وإخراج تصاريح الدفن، وهكذا أصبح أقرب ما لي يلقبون بالجثامين..

الآن، عليّ أن أعود إلى حيث أتيت، ولكنّي لا أقدر على الرحيل، ولم يعد لديّ طاقة ولا أعرف ماذا أفعل أو أين أذهب، خطر على ذهني فادي، بحثت عن هاتفي داخل جيبي لألتقطه سريعًا وأهاتفه وأنا أصرخ وأقصّ عليه ما حدث، حاول تهدئتي إلا أنه فشل، وطلب مني الانتظار أمام باب المستشفى حتى يأتي.

لم أستطع تمالك أعصابي فتمردت عليّ قدماي حتى أجلستني على دَرَجُ السُّلَّم في مدخل المستشفى، شرد عقلي في كل الاتجاهات، يفكر في ذكرياتي السعيدة مع أمي وأبي، يعذبني بلحظة الفراق التي أمضيتها مع جثث هامدة، ينغِّص عليّ المستقبل، لقد كانوا كل شيء في حياتي، فأبي هو السند الذي أرتكز عليه، وعقلي الذي أفكر به، ومصدر الأمان، وواحة الاحتواء، الآن ضاعت بوصلتي، وانحنى ظهري، وتملك الخوف مني. رحل فؤادي مع أمي التي كانت ينبوعًا من الدفء والحنان، لقد كانت هي المدرسة والمستشفى والمرتع، وها هي الآن رحلت وتركتني هشة الروح بلا مأوى، نعم، لدينا منزل كبير لكنهما تركاه لي خاويًا كئيبًا، كيف أعود إليه وقد أصبح جحيمًا من دونهما؟ كيف أسكن فيه وقد ضاع سكني؟ كيف أنام داخله وقد ذهبت أماني؟ لا أريد العودة، لا أريد الرجوع، ليتني أرحل معهما، لقد رحلت معهما بالفعل، أما أنا الآن فمجرد جسد بلا روح.

استفقت على صوت خافت يناديني من بعيد ولكنه يدنو مني، نظرت أمامي لأجده فادي، لقد جاء إليّ ليصطحبني معه، كان يبدو عليه القلق والصدمة الممتزجة بالحيرة، قمت إليه وهو يشد أزري ويمسح على كتفي ويواسيني، ولكن أيَّة موساة! أتواسيني على روحي التي انتُزِعت؟ أم صدري الذي انشق؟ أم فؤادي الذي سلب مني؟! نظرت إليه وعيني ممتلئة بالوهن، ووجهي يعتريه العبوس، وشفتاي مرتجفتان ترتعدان، في تلك اللحظة لم أعد أشعر بأي شيء سوى هذا الفراغ الذي حلَّ بجسدي. سمعت فادي يحدّثني بصوت خافت كأنه من وراء حجاب: "هل أنتِ بخير يا حبيبتي؟". نظرت إليه متأنية، فكأن غشاوة قد أظلت عيني لم أعد أراه جيدًا، حدّقت إليه حتى أراه جيدًا، استندت عليه حتى أنهض من مكاني وأنا أشعر باختلال توازني، قادني إلى سيارته وفتح لي بابها لأركب فيها، ثم ذهب ليقود بنا إلى أرض العذاب.

- أنا لا أريد الذهاب إلى المنزل لن أستطيع المكوث هناك.
- إلى أين تودّين أن أوصلك؟
- لا أعلم، ولكني لا أريد الذهاب إلى هناك.

رنّ هاتفي الذي لا يزال في يدي، إنه هيثم مدير مكتب أبي، أجبته دون أن أنطق، فقال لي: "أين أنتِ؟ وأين أبيك الآن؟"، فانفجرت باكية وكأنه أعادني إلى الصدمة الأولى، أخذ فادي مني الهاتف وتحدث إليه: "البقاء لله، لقد توفيا في حادث سير".

- لقد أنهت بيري كل الإجراءات ونحن في الطريق إلى المنزل.
- إن شاء الله.

أنهى المكالمة ونظر إليّ وقال: "إنه ينتظرنا في منزلك، يقول إنه أمر مهم لا يمكن التأخير".

ظللت أحدّق في اللا شيء أمامي دون أن أنبس ببنت شفة، أو حتى أن ألتفت حولي، حتى وصلنا إلى البيت المهجور، عاد قلبي ينبض وكأنني سأراهم مرة أخرى بالداخل، أتمنى أن يكون كل ذلك من وحي خيالي ولم يحدث أي شيء، تخيلت ذراعي أمي المفتوحين لاستقبالي في حضنها، ونظرة أبي الحانية وهو يقبل رأسي. لم يكن خيالي صائبًا كما تمنيت، فقد خانني إحساسي ودخلت المنزل الكئيب الخاوي من الروح، لأجد أستاذ هيثم يجلس في حجرة الاستقبال، استعدت صلابتي ومددت يدي إليه بالسلام، قال لي: "ماذا حدث؟ لقد هاتفت أباك كثيرًا لأكثر من ساعتين إلا أنه لم يرد؟"

رد فادي عليه: القدر قاده إلى حادث مروع مع والدتها.

- لا إله إلا الله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

قالوا ذلك وأنا ما زلت في حالة ذهول، أتخذ من الصمت دِرعًا ليحصنني من الانهيار.

استكمل هيثم كلامه: مع الأسف هناك أمر جلل لا بد أن تعرفيه قبل الغد.

رد عليه فادي: وهل هناك أجّل من ذلك؟

- نعم يا بني؛ لقد حجزت البنوك على جميع أملاكه، وسينفذ القرار غدًا، ولا بد من إخلاء المنزل.
- كيف ذلك؟
- لقد اقترض أبوها من البنوك، ولكنه خسر أموالًا كثيرة في صفقة كبيرة، حاول لآخر لحظة أن يوقف هذا الحجز ولكنه لم يستطع، لجأ لكثيرٍ من أصدقائه إلا أنهم خذلوه، حدّثني منذ ساعات ليخبرني أنه قادم مع زوجته باعتبارها شريكته في المكتب ليبحث آليات بديلة للتفاوض، ولكن انتظرت دون أن يأتي.

دخلت في الحديث: ماذا أفعل؟ وكيف ينفذون غدًا؟ أين أذهب؟

رد عليّ هيثم: أبوكِ صاحب فضل عليّ، وأنا سأتكفل بمصاريف العزاء والجنازة.

- عزاء؟! أي عزاء؟! ليتني ذهبت معهما، تركوني وحدي أتجرع ويلات القدر.
- اهدئي يا بنيتي، ربنا يرحمهما.
- وأنا؟ من يرحمني؟ لقد أصبحت بلا مأوى فعليًّا.
- لا تقلقي؛ سوف نرتب جميع الأمور سويًّا. أنتِ كابنتي، حاولي جمع جميع أغراضك ولنرحل من هنا.
- دعني أرتب أموري، وأفكر قليلًا.

- أتركك الآن وسآتي معك غدًا إلى المشرحة.

رحل أستاذ هيثم وتركني بصحبة فادي الذي ظهرت على وجهه علامات الدهشة والشفقة، نظرت إليه: ماذا أفعل الآن؟

- لا تفكري في أي شيء الآن حبيبتي، حاولي أن تستريحي قبل عناء الغد، وسآتي إليك باكرًا.
- أيَّة راحة تتحدث عنها؟ لم يعد هناك راحة.
- حبيبتي، لا تقلقي أبدًا، طالما ما زلت على قيد الحياة، أنتِ مسئولة مني أنا، وسأبذل كل ما في وسعي حتى أتمم إجراءات الزواج في أسرع وقت.
- زواج!
- نعم، أشعر بحزنك العميق الآن، ولكن هذا هو القدر الذي يقودنا إلى إتمام الزواج حتى تعيشي معي منعًا لكلام الناس، وحتى يحدث ذلك سوف أستأجر لك شقة تعيشين بها حتى الانتهاء من ترتيب شقتي.
- أشكرك جزيلًا، حقًّا لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونك.
- أنا لا أفعل أي شيء، هذا أقل حقوقك عليّ.
- لم أعد أستطيع التفكير في أي شيء، لا أعرف حتى ماذا عليّ أن أفعل الآن.

- هوني عليكِ، لابد أن تذهبي للنوم ولو تريدين المكوث معك سأظل.
- لا، لقد تأخر الوقت وسأحاول النوم.
- حسنًا حبيبتي، وإن أردتِ أي شيء حدثيني فورًا، سأكون عندك في الحال، تصبحين على خير.
- وأنت من أهل الخير.

الآن أصبحت بمفردي، لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل، أأجمع أغراضي قبل أن يحجزوا على البيت أم أبكي أبي وأمي؟ أم أفكر في مستقبلي المظلم؟ ربما هوّنت عليَ كلمات فادي هذه، فكلها شهور ونتجمع في بيت ونبدأ حياة جديدة، الحمد لله على وجوده بحياتي، لن أستطيع الصعود إلى غرفتي المجاورة لغرفة أبي وأمي، سأستريح هنا على تلك الأريكة، أغمضت عينيي واختطفني النوم لبضع ساعات.

## ( ٢ )

استيقظت مفزوعة على صوت الهاتف، إنه هيثم، قد أنهى جميع الإجراءات، وحدّثني لآتي لاستلام الجثمان وحضور الدفن، حاولت مهاتفة فادي إلا أن هاتفه كان مغلقًا، ذهبت وقلبي منفطر حزنًا يخشى هذا اللقاء الأخير، حاولت استرداد بعض طاقتي، إلا أنني عندما جالت في خاطري كلمة "الدفن" اهتزّ كياني.

فور وصولي المشرحة، وجدت هيثم في استقبالي يشد أزري، حتى أتماسك لأستعد للخطوات التالية المرهقة، وبالفعل استجمعت قوتي التي انهارت فور رؤيتي خروج الجثامين، أهذا آخر لقاء حقًّا؟ كيف حدث كل ذلك في لحظات؟ كيف تنقلب الحياة بتلك الصورة بين ليلة وضحاها؟ لقد ضاع مني كل شيء، وهم في طريقهم إلى عالم آخر لا أستطيع تخيله.

وصلنا إلى جامع "عمر مكرم" حيث بدأت الطمأنينة تتسرب إلى وجداني، وبدأت صلاة الجنازة، ودموعي تنهمر مني عنوة، لم أستطع توقيفها، حتى أنهينا الصلاة الواقفة. انتقلنا إلى مدافن العائلة وقد ذهبت قوتي كاملة، جسدي يقشعر من البرد، أنظر حولي في ارتياب، الجميع ينظر نحوي، وكأنني اقترفت إثمًا أو نزعت عني ملابسي. بذلت قصارى جهدي

في محاولة التمسك بأقصى درجات الصمود حتى وقفت على مدخل المقبرة، دبت القشعريرة في جسدي، واضطرب وجداني، عندما رأيت أبي وأمي يهبطان تحت الأرض بعيدًا عني، ليس على أرجلهما، بل مسلوبي القوة والحركة، تورادت أفكار كثيرة بخاطري: كيف سيشعرون تحت الثرى؟ أحقًّا أرواحهما معي؟ أم أن روحي هي من لحقت بهما؟ ماذا أفعل من دونهما؟ لقد انتهى كل شيء حتى تلك الحياة التي يظن بعض الناس أنني ما زلت على قيدها لم تعد موجودة، فأنا الآن مدفونة معهما، مجرد حطام أطلال.

انتهى الدفن. ورأيت جمعًا من الناس لا أعرفهم يحيطون بي، يساندونني، ويواسونني، وأنا لا أشعر بأي شيء داخلي سوى مجموعة من الأسئلة المبهمة التي ستقضي عليّ في أيَّة لحظة، تنبهت لصوت هيثم يخبرني بأن علينا أن نتحرك، ذهبت معه في سيارته.

- ماذا ستفعلين؟
- في ماذا؟
- أتحدث عن العزاء ونقل مستلزماتك، هل وجدتِ سكنًا ملائماً؟
- نعم، سيوفره لي فادي، ولكن لا أعرف أين ذهب؛ لم يأت الدفن.
- ربما يبحث عن الشقة كما وعدك.
- أظن ذلك، سأحدثه فور وصولي، وأشكرك على تلك المساعدة.
- لقد وعدتك بتكفل جميع مصاريف الدفن والعزاء، أين تحبين أن نقيم العزاء؟

- لا أريد عزاءً، كل ما أريده أن يدعني البشر وشأني.
- أعانك الله، سأظل معك حتى يأتي فادي ونسلّم البيت وجميع الممتلكات.
- أشعر أنني بحاجة إلى المكوث وحدي لأرتب جميع أشيائي قبل تسليم الممتلكات، وأشكرك على تلك الوقفة جواري.
- عفوًا، فوالدك صاحب فضل عليّ، وإن احتجتِ إلى أي شيء هاتفيني على الفور.

وصلت البيت وكررت شكري له، ثم دخلت هذا الجحر الذي أصبح متشحًا بالسواد، ليس فيه روح أو حياة، وجدت عم عبده الطباخ ما زال متواجدًا وكأنه ينتظر عودتي، بعد أن رحل جميع العاملين معه بمجرد علمهم الخبر. اتجهت إليه فقام من مجلسه وأخذ بيدي ليعزيني، وقال لي: لقد انتظرتك حتى أقدم لكِ الطعام وأعد لك آخر قدح قهوة.

- لا أريد يا عم عبده.
- أرجوكِ يا بنيتي، لابد أن تتناولي أي شيء.
- لن أستطيع تناول أي شيء، سأشرب قدح القهوة فقط.
- ستكون جاهزة على الفور.
- على راحتك، سأصعد لأعد حقيبتي قبل أن أتناولها.

صعدت إلى غرفتي، وجمعت أغراضي الأساسية على عجلٍ، ملابسي وحُليي، وأنا أدعو الله أن ينتهي فادي من مهمة العثور على شقة سريعًا، لقد أصبح هو أملي الوحيد في الحياة، ربما وجوده جواري يخفف عني كل تلك الآلام التي تطعنني. انتهيت من أغراضي وهبطت إلى أسفل حيث وضع عم عبده القهوة وجلست لأحتسيها، قبل أن أحاول محادثة فادي لعشرات المرات، ولكن كل مرة يخبرني هاتفي أنه "لم يتم الرد"، شرد ذهني بعيدًا ماذا قد حلّ به؟ لم يعد لدي قدرة على تحمل المزيد من الوجع. أشفق عليّ عم عبده، وشعرت به يربت على كتفي، ويقول لي: "دعيها للخالق سيدبرها".

- قلقة جدًا على فادي، لا أعلم ماذا حدث له.

- لا تقلقي يا بنيتي، سأصطحبك معي إلى منزلي المتواضع حتى تطمئني على خطيبك.

نظرت إليه بامتنان؛ لأنني شعرت بعميق إحساسه بما يجول في خاطري، ثم قلت: "شكرًا"، دق جرس الباب، لقد وصل المفوضين لتسلّم الممتلكات، لم يعد لدي أي شعور في تلك الفترة حتى انتهينا من إجراءات التسلم، وأخذنا حقائبي لأذهب إلى المجهول.

أوقف لنا عم عبده سيارة أجرة لتنقلنا إلى محل إقامته في حي بولاق الدكرور، ربما سمعت عنه من قبل، ولكني لم أذهب إليه قط، أخبرني أن لديه ابنة تقترب مني في العمر تدعى منة، وسترافقني في كل ما أحتاج،

ربما كان يقول ذلك حتى يطمئنني. تأملت قليلًا ولأول مرة وجه عم عبده ذو المعالم الهادئة الراضية، نظرت إلى شعره الأبيض المليء بالحكمة، وجبينه الناصع البياض، وعينيه المريحتين، فهدأ قلبي كثيرًا وشعرت للحظة أنني في كنف الأمان الذي ظننت أنني فقدته للأبد، لقد كنت أنظر إليه دائمًا بشفقة؛ لأن حظه أن يشقى من أجل غيره من الأغنياء، ولكني الآن أشعر أنا بالخزي لأنني كنت أراه كذلك، يكفيني أن يده الوحيدة هي التي امتدت إليّ بكل حب في اللحظة التي خذلني فيها جميع الناس.

أعلم أن فادي لم يمنعه عني إلا ظروف قاهرة، ولكن على قدر قلقي عليه على قدر ضيقي منه، وعندما عرض عليّ هيثم توفير مسكن شعرت أنه غير جاد به، أما جميع أصدقائي فلم يحضر أحد، لقد ذهبوا مع أموال عائلتي، حتى أقرب صديقة لي، جارتي نجوى التي عشت معها عمري كله، اكتفت بمكالمة هاتفية، لم أعلم أكانت للمواساة أم الشماتة! إلا هذا الرجل البشوش الذي أشعرني بالحب الحقيقي.

وصلنا إلى منزله القاطن في حي بولاق الدكرور الذي أخبرني عم عبده أنه يفصله عن حي الدقي كوبري يسمى "الخشب". ياللعجب! أمتار قليلة تفصل بين الرغد والضيق، فالشارع ممتلئ للغاية، عربات صغيرة تسمى "تكاتك" تزاحم بعضها بعضًا، والمحال منتشرة في مساحات صغيرة، والبشر منتشرون في الشوارع، أذهلني شكل القمامة الملقاة في الشارع دون أي صناديق.

نظرت إلى بيت عم عبده الموجود في الدور الثالث، هيئته جيدة من الخارج، ولكن الطرقات بين المنازل صغيرة إلى حد ما، صعدت معه إلى شقته، ودخلت ليعرفني على ابنته الجميلة منة التي قابلتني بلطف، واحتضنتني كأنها تعرفني منذ سنوات. أدخلتني غرفتي، وعرّفتني على محتويات الشقة، ورتّبت معي مستلزماتي، سألتها عن والدتها، أخبرتني أنها متوفية منذ سنوات، وبعدها أصبحت هي ربة البيت، فلم يعد بالبيت سواها ووالدها، حجرتي الجديدة صغيرة، ولكنني شعرت بها بدفء لم أشعر به من قبل.

تحدثنا عن فادي وعن قلقي عليه، فشردَت قليلًا قبل أن تحضر هاتفها لتحادثه، لتأتي المفاجأة بالرد السريع على الرغم من أنني سبقتها وحادثته كثيرًا، ولكني قررت أن أحادثه ثانية ربما يكون هناك عذر وانتهى، ولكنه أيضًا لم يرد، وفهمت رسالته التي أذرفت دموعي، حاولت منة تهدأتي وأخبرتني أن الأزمات تكشف معادن البشر، وتلك حكمة الله التي ندركها مع مرور الزمن.

- ولكني لا أستطيع تحمل كل ذلك.
- كان أبي دائمًا يقول لي: "إذا ضاقت عليك الأرض يومًا، فالجئي إلى أحضان السماء الحانية، ودعي روحك بين يدي خالقها؛ فإنه لن يخذلك أبدًا، وستجدين الكون كله مسخَّرًا من أجلك".
- وكيف أفعل ذلك؟

- دعيها لله، افتحي النافذة، وانظري إلى السماء وتأمليها، واشكي لها همك.

تركتني منة لأستريح بعد أن شعرت أنني بحاجة إلى ذلك، فتحت النافذة التي تطل على الظلام الموحش، ربما لم تكن الدنيا بكل هذا الظلام الذي أراه الآن، ولكن صدري الممتلئ بالسواد يجعلني لا أرى هذا النور الهابط من السماء، وكأنها تحاول طمأنتي. ظللت أحدّق في هذا الظلام، أبحث عن روحي، تلك التي ضاعت مني فجأة وسط ظلمات الفقد والوحدة والغربة، ربما رحلت مع من رحلوا وصرت مجرد جسدٍ خاوٍ ليس به حياة، نعم، أنا بقايا حطام، أنا تلك الأطلال التي تزحم الفراغ دون جدوى، أنا هذا الفراغ الذي تراه ولا تراه. لم أعد أرَ أيَّة شرارة نور ترشدني لطريق أسير فيه، جميع الطرق لا تؤدي إلى شيء، جميع الشموع انطفأت، جميع المصابيح أحرقت، حتى نور الشمس الذي ظننته ساطعًا، أذيب بين طيات الظلام الأسود الذي انتصر على كل شيء، اليوم أنا أرى الحقيقة التي لم أرَها من قبل اليوم، أبصرت لأدرك جيدًا أنني لم أكن مبصرة. عشت أوهامًا كنت أظنها حقيقة، اتكأت على سند كنت أظنه راسخًا، خططت لمستقبلٍ كنت أظنه آتٍ، كم أنا حمقاء عمياء! كنت أرى بعين لا تبصر، أين كان البصر؟ وأين كانت البصيرة؟ ربما لم تقسّم عليّ لأنني في الحقيقة عدم.

أنا أمقت هذا العالم القميء الذي تعيشون فيه تتصارعون، تستبيحون مشاعر غيركم، تأكلون لحوم بعضكم بعضا، فإلى الجحيم، سحقًا لهذا العالم الذي تعيشون فيه، لم أعد أرغب فيه، ولن أستطيع التحمل لأيام، ولكن ما بيدي حيلة، لو لم يكن الانتحار إثمًا لفعلت على الفور. ظللت أشكو بثي وحزني إلى الله، حتى اختطفني النوم.

## ( ٣ )

استيقظت لأجد نفسي على سرير واسع مريح يكسوه الفراء، نظرت حولي لأجد حجرة برحة مطلية باللون البنفسجي الفاتح الهادئ الذي أرتاح لرؤيته، إنه بيتي القديم بعد التجديد، رأيت على مدخل الحجرة رجلًا وسيمًا، حسن الطلة، ترتسم على وجهه ابتسامة مشرقة، يحمل "صينية" عليها أواني طعام، ويقترب مني ليضعها على الفراش، ويطبع على جبيني قبلة حانية، ويهمس بصوت هادئ: "صباح الفل يا حبيبتي".

بدأت أنهض وأنا في كامل ذهولي، لأجده يضع في فمي لقمة حسنة الطعم، لم ألتفت لها بقدر ما انجذبت إلى عينيه البرّاقة: "لقد أعدت لكِ الإفطار لأنك كنتِ مرهقة بشدة ليلة أمس من أثر سقوطك من على السلم".

- لم أتذكر أي شيء.
- لا تفكري في أمس، نحن اليوم، دعينا نفطر حتى ننزل لنتنزه في حديقة البيت، اشتقت إلى السباحة معك ولعب اليوجا، أتتذكرين يا حبيبتي؟
- أنا حقًّا أحب اليوجا والسباحة ولكن...

- كفانا حديثًا، أنتِ بحاجة إلى الأكل ولندع الماضي، لقد أرهقتِ كثيرًا في عملك.
- عملي؟ أي عمل؟!

يضحك قليلًا قبل أن يجيب: مركز العلاقات الأسرية. نحن شركاء به، يبدو أن سقوطك أثّر عليك، علينا أن نذهب لإجراء الأشعة والفحوصات اللازمة، علي الرغم من أن الطبيب طمأنني، ولكن علينا أن نطمئن أكثر.

ظللت أنظر إليه بإعجاب يشوبه التعجب، ولكني كنت سعيدة، يبدو أنني كنت في كابوس مزعج، أنساني نفسي وبيتي وزوجي اللطيف، أشكرك جزيلًا يا الله على تلك الهدية الجميلة، شعر بحاجتي إلى الراحة فشعرت به وهو يتلمس شعري ويعانقني لينتابني شعور لم أحسه من قبل، إنها الراحة والحب والأمان، كأنني في الجنة.

استندت إلى ظهر السرير المبطن وأنا أشعر بالدفء والحب والراحة التي قادتني إلى النوم..

*****

استيقظت على تقلب جسدي لأجدني في حجرة ضيقة، إنها شقة عم عبده، يا إلهي ما هذا الذي يحدث؟ أكنت أحلم؟ أم أنني الآن أحلم؟ لم أعد أفهم أي شيء، عقلي سيجنّ، ماذا عليّ أن أفعل الآن،

سأخرج لأرى ماذا يدور حولي، نظرت في الهاتف أولًا وجدت الساعة التاسعة صباحًا، خرجت لأجد منة تجلس على المنضدة وتتمعن في إحدى ورقات صحيفة ورقية.

- صباح الخير.
- صباح النور، لماذا استيقظتِ مبكرًا؟! لقد خشيت أن أوقظك حتى يأخذ جسدك راحته الكافية.
- اعتدت الاستيقاظ في هذا الوقت، ماذا تفعلين ويأخذ منك كل هذا التركيز؟
- أحلُّ الكلمات المتقاطعة.
- الكلمات المتقاطعة!
- نعم، لعبة الخارجين إلى المعاش.
- لماذا تقولين ذلك وأنتِ ما تزالين في ريعان شبابك؟
- نعم، ولكنها لعبة مسلية حقًا وتنشط الذهن والذاكرة.
- أريد أن أجرّب.
- حسنًا، ولكن لا بد أن تتناولي الإفطار أولًا، سأقوم لأعده لكِ.
- انتظري، أود أن أعد الإفطار معكِ، أريد أن أعتمد على نفسي في كل شيء.
- اتفقنا، هيا نعده سويًّا.

استمتعت حقًا وأنا أتعلم أشياء جديدة حتى وإن كانت بسيطة، لم أتخيل يومًا أنني سأدخل مطبخًا وأعد الإفطار وأجهز الشاي، كنت أتابع منة جيدًا حتى أعرف ماذا تفعل، وهي لم تبخل عليّ بشرح التفاصيل، يبدو أن أمر الطهي أو إعداد الطعام هذا مسلٍّ للغاية، وله مذاق مختلف، انتهينا من تناول الإفطار، وعدنا إلى تلك اللعبة السحرية، لأفكر في الأشياء وأفاضل بينها لأصل للإجابة الصحيحة، قمة المتعة أن تحس بلذة الانتصار وتتأكد من حلولك وتجدها صحيحة. قالت لي منة: سأتركك مع بقية الكلمات المتقاطعة، وأنهض لإعداد الطعام قبل أن يأتي أبي.

- أين هو؟
- ذهب للعمل في فندق.
- أيعمل في فندق؟
- نعم، كان يعمل طباخًا فترة مسائية، حتى يأتي إليكم في النهار، ولكن الآن قرر العمل صباحًا.
- إنه حقًّا رجل جميل؛ أدامه الله علينا نعمة.
- وأنتِ كيف تقضين يومك؟
- عادة أذهب إلى العمل، ثم آتي أعد الطعام، ثم أحل الكلمات المتقاطعة، وأقرأ، وأجلس مع أبي.
- لماذا لم تذهبي اليوم؟
- لأن اليوم الجمعة؛ إجازتي الأسبوعية.

- أنا أيضَا أريد أن أبحث عن عمل.
- أخبرني أبي أنك تخرجتِ مؤخرًا، ماذا كنت تدرسين؟
- كنت أدرس علم اجتماع في الجامعة الأمريكية، وكنت أحلم أن أمتلك مكتب استشارات أسرية، ولكن لم يحالفني الحظ تلك المرة، حتى فادي تخلى عني.
- صدفة جيدة، إنني خريجة كلية الآداب جامعة القاهرة، وأعمل في مكتب استشارات أسرية كبير، ولا يبعد عن هنا كثيرًا، إنه في الدقي.
- رائع بالطبع، أتمنى أن أعمل لربما أستعيد جزءًا من حياتي.
- بإذن الله سنجد لك عملًا معنا، سأتحدث غدًا إلى الدكتور مراد كامل، رئيس المكتب قبل أن يغادر إلى رحلته إلى باريس.

اقشّعر بدني عندما سمعت هذا الاسم، لا أعلم لماذا، ولكن ربما سمعت عنه من قبل، أو رأيته في ندوة أو بالكلية، قلت لها: "أشعر أنني سمعت هذا الاسم".

- بالتأكيد لا بد أن تكوني قد سمعتِ اسمه من قبل، فهو أشهر خبير في العلاقات الأسرية، وله سلسلة مكاتب منتشرة في جميع المحافظات، ولكن هذا المكتب الرئيسي له، إنه يحظى بشهرة دولية، وليس هنا فحسب، وتستعين به أكبر جامعات العالم لإلقاء محاضرات هناك.

- حسنًا سأحاول البحث عنه لمعرفته أكثر، بالتأكيد سمعت عنه من قبل في الجامعة.

تركتني منة لتعد الغداء، في الوقت الذي انتابتني فيه حالة من الملل المفاجئ، سافر عقلي إلى الماضي القريب، استرجعت ما حدث منذ أيام قلائل، وكيف تحول حالي وتغيرت كل الظروف بين عشية وضحاها، تذكرت فادي وأحلامنا سويًّا منذ الصغر، وكيف انهارت فجأة ككل شيء، ولكن ما زال يتردد في ذهني لماذا فعل ذلك، حتى عائلته التي كانت مقربة جدًّا لأبي وأمي أين ذهبوا؟ ولماذا فعلوا ذلك؟

ذهبت إلى المطبخ حيث تعد منة الغداء، شعرت أنني مشتتة التفكير، فسألتني: ماذا بك؟

- أشعر بحنين نحو فادي، ولا أعرف ماذا أفعل؟
- طبيعي، ما زلتِ تحت تأثير الصدمة.
- لا أستطيع أن أستوعب ما حدث، لقد عشت عمري كله معه، لم أرَ غيره، ولا أعرف لماذا فعل ذلك!
- الظروف تكشف حقيقة النفوس، ربما كان يقترب منك لأنك صاحبة مال.
- كيف وكانت عائلته كلها مقربة منا؟!
- هؤلاء هم البشر، وأنت في أوْجك تجدينهم جميعًا حولك يطلبون ودك، وعندما تنحني بك الظروف تجدين ألف قدم تخطو فوقك.

- لقد كرهت كل هؤلاء البشر.
- البشر في حياتنا مراحل، ولا بد أن ندرك ذلك جيدًا، حتى لا نعرض أنفسنا لصدمات مهلكة تستنزف حياتنا وأرواحنا.
- أنا فقط أريد إجابة عن تساؤلات كثيرة تجول في ذهني.
- تخص فادي؟
- نعم، تخص فادي وأباه وأمه ونجوى جارتي وصديقتي التي كنت أظن دائمًا أنها سندي، كنت أسرع عليها إذا جاءني خبرٌ مفرحٌ أو حدث أي شيء يحزنني، وكنت أول من يتلهف عليها إذا أصابها أي مكروه.
- أظن أن الإنسان حتى يعيش حياة سوية لا بد أن يطوي صفحات الماضي بعد أن يأخذ منها العبرة، ولكي تطويها للأبد، لا بد أن تعرفي إجابات تساؤلاتك، جربي تحدثي إليه وإليها، فربما يكون لديهما عذر قاهر.

حاولت محادثتهما كثيرًا إلا أنه لا أحد يرد عليّ، خطر في ذهني أن أحدث زميلة لنا كانت مقربة من نجوى بعض الشيء.

- مساء الخير.
- مساء النور. مَن يتحدث؟
- أنا بيري رشاد كنت زميلتك بالكلية.
- أهلًا بك، لقد سمعت ما حل بك وحزنت كثيرًا، البقاء لله.

- الدوام لله وحده، أوّد أن أسألك عن نجوى إن كنت تحدثت إليها قريبًا، لأنني انتقلت بعيدًا عن المنزل، ولا أحد يجيب على هاتفها فقلقت.
- كيف ترد وزواجها مساء اليوم، بالتأكيد تستعد للحفل؟
- زواجها؟!
- ألم تخبرك؟
- لا.
- ربما بسبب الظروف التي حدثت لكِ خشيت على مشاعرك، خاصة أن أباها سيسافر، ولم تتمكن من تأجيل الخطبة.
- أتعرفين من هو العريس؟
- فادي زميلنا، أظن أنك تعرفين ما بينها.

وقعت عليّ تلك الكلمة كالصاعقة، وأصابني ذهول استفقت منه بعد لحظات، لأرد عليها: وددت فقط أن أطمئن، بارك الله لهما، وأعتذر عن إزعاجك.

- ليس هناك أي إزعاج.

أغلقت المكالمة ووضعت يدي على رأسي الذي يدور بي، لأسمع صوت منة المتلهف يقول لي: "ماذا حدث؟" نظرت إليها وعيني مليئة بالانكسار: "أعز صديقة لي ستتزوج حبيبي اليوم".

ضمتني منة إلى صدرها دون أن تنطق، ولكن كثير من الكلمات وصلت إليّ، لم أشعر بنظرة اللهفة تلك التي رأيتها منذ لحظات في عين منة – التي لم أعرفها سوى منذ يوم– من نجوى –التي عاشرتها لأكثر من ٢٠ عامًا– حقًّا الأرواح جنود مجندة، ولكني كنت عمياء البصيرة. وعلى الرغم من هذا الكم من الحب والألفة، إلا أنني شعرت بانكسار قلبي، عرفت كم كنت ساذجة طوال تلك السنوات، لماذا لم يخطرني أبي وأمي أننا نعيش في غابة؟! لماذا لم يعلماني فن المخادعة حتى أنجو بنفسي منها؟! لم أشعر بنفسي سوى والدموع تنهمر من عيني ونحيبي يمزّق عضلات صدري، وكأن روحي ستصعد مني. مرّ بعض الوقت وكنت هدأت قليلًا، قبل أن أسمع صوت جرس الباب يرن، ذهبت منة لتفتح إنه عم عبده، نظرت إليه بدهشة، فقال لي: "خشيت أن أفتح الباب فأنتهك خصوصيتك".

تبسمت بصعوبة، وقلت له: "ليت كل البشر مثلك".

قالت منة: "سأحضر لكما الغداء حالًا، هيا يا أبي استبدل ملابسك".

قامت منة لتحضير الطعام، وسألني عم عبده: "هل أنتِ بخير؟".

- نعم، كل شيء مريح هنا.
- ولكني أشعر بضيق صدرك.
- ضيقي ممن كنت أظنهم عزوتي وكسروني، وليس من هذا المكان.

- بنيتي، أنا أشعر جيدًا بما بك وأقدرّه، ولكن لا تتركي نفسك كثيرًا للماضي فيلتهم مستقبلك، استمتعي باليوم وخططي للغد، تنزهي مع منة وإن احتجتِ أي شيء أخبريني وسأكون تحت أمرك.
- أنعم الله عليك بكل الخيرات، أنا لست بحاجة إلى أي شيء، يكفيني تلك الراحة والأمان الذي شعرت بهما هنا.
- أعلم أن شقتي ضيقة جدًّا عليك، ولكن...
- لا تقل ذلك ثانية، بالعكس هذا المكان الضيق بَرِحٌ كثيرًا عن الأماكن الواسعة الممتلئة بالأقنعة الزائفة والنفوس المتوحشة.
- سنرش لك الشقة بماء وملح؛ لربما تطرد عنك الأفكار السلبية، واتركي شأنك ليد الله فسيفاجئك بفرحة لم تكوني تتخيلينها، فقط ثقي في قدرته العظيمة، فسبحانه يقول للشيء كن فيكون.
- ونعم بالله، أتمنى أن يصبح عندي نصف رضاك يا عم عبده.
- ربنا يراضيكِ ويرضى عنكِ يا بنيتي.

تناولنا الغداء الشهي الذي أعددته منة، ثم احتسيت الشاي، واستأذنت لأدخل لأستريح، ما زال ذهني متأججًا بأفكار شاردة لا أستطيع التحكم بها، أتذكر لحظات سعيدة قضيتها مع فادي منذ صغرنا، جالت بذهني مشاهد لعبنا سويًّا، فرحتنا بالتخرج في المدرسة، التحاقنا بكلية واحد، أول مرة يقول لي أحبك، أحلامنا المشتركة، أغمضت عيني وتهت في النوم.

## ( ٤ )

استيقظت لأجدني على سرير الرجل الوسيم مرة أخرى، ماذا يحدث؟ أكل ذلك كان حلمًا مزعجًا أم أنني الآن أحلم؟ لم أعد بإمكاني أن أدرك أي شيء، عليّ أن أشاهد في صمت، لا، سأغمض عيني مرة أخرى حتى أعود للواقع، شعرت بأنامل تتحسس شعري ووجهي في رفقٍ، فتحت عيني لأرى هذا الرجل الوسيم الذي كان يحمل لي الفطور من قبل، نظرت إليه بتعجب، فقال لي: "تركتك لتستريحي طويلًا، كفاكِ نومًا لقد اشتقت إليكِ كثيرًا".

- اشتقت إليّ! لماذا؟ أنمت لوقتٍ طويلٍ هكذا؟
- نعم، أنتِ نائمة منذ ثمان ساعات بعد أن تناولتِ الفطور صباحًا، الآن نحن مساءً، هيا لتتناولي معنا الغداء، سنتناوله سويًا في الحديقة حتى تستنشقي هواءً نقيًّا كما تحبين.
- أنا بالفعل أعشق رائحة الهواء النقي حتى أذوب في حضن الطبيعة.
- أعلم جيدًا يا حبيبتي، ألديك شك أنني بعد كل هذه السنوات أحفظ شخصيتك عن ظهر قلب؟!

تبسمت قبل أن أقوم معه، حتى لا يشعر أنني لم أذكره مطلقًا، يبدو أن هذا هو الواقع، لا يجب أن يشعر أحد أنني لا أعرف التفريق بين الواقع والحلم، وإلا صرت أضحوكة.

نزلنا سويًّا إلى الحديقة، ويده تسندني وكأنه شعر بالدوار الذي يلم بي، ولكني أشعر بارتياح شديد لألوان هذا البيت الذي عشت به طوال عمري، كما أحسّ بألفة واضحة بيني وبين هذا الرجل، فور نزولي الدرج وجدت قطة مشمشية جذابة تهرول نحوي، وتحتضن قدمي وتتسلق عليّ حتى تمازحني، لا يمكن أن أكون غريبة عن تلك القطة وهي تألفني بهذا الشكل، احتضنتها بلطف، فأنا أعشق هذا الكائن الرقيق الساحر. خرجنا ثلاثتنا إلى المائدة المجاورة لحمام السباحة وسط الخضرة المبهجة المطعّمة بالزهور، مشهد خلاب أراح صدري، جلسنا لأجد يده تحتضن يدي، ويقول لي: "أحبك وكأنني أول مرة أنظر إلى عينيك فتأسرني". لم أستطع الرد على تلك الكلمات التي هزت فؤادي وأنعشت صدري، نظرت أمامي فوجدت بنتًا صغيرة تبلغ نحو سبعة أعوام تأتي نحونا، فيحدثها زوجي: لماذا تأخرتِ يا قطتي الصغيرة؟

- لم أتأخر يا أبتي، ولكن كنت أنهي اللوحة كما طلبت مني، حتى تفرح بي أمي.

قالت تلك الكلمة وهي تنظر نحوي قبل أن تقترب مني وتعانقني بعنفوان، وكأنها تشتاق إليّ منذ أعوام طويلة، شعرت بالفعل أنها جزء مني، ولكن لا أعرف حقيقة تلك المشاعر الغريبة، وجدت نفسي أقول لها: "هيا صغيرتي لتناول الطعام". تناولنا الطعام في الهواء الطلق على أنغام موسيقى عمر خيرت الهادئة، لينتابني شعور بالدفء، ويغمرني إحساس بالنشوة، كم أرتاح إلى تلك الحياة، أتمنى أن يكون هذا هو الواقع، استفقت من شرودي على نظرات متعمقة في عيني من زوجي يهمس لي: "أين ذهبتِ بعيدًا عني؟ لقد اشتقت إليك".

- اشتقت إليّ وأنا جوارك؟!
- أشتاق إليك عندما تغمضين عينيك عني، أشعر كأن الشمس غربت عن الدنيا، فما ظنك إن شردتِ بذهنك عني؟

تبسمت وقلبي يتراقص على أنغام تلك الكلمات التي اخترقت فؤادي وهزت كياني، وكأنها لم تمّر على أذني قبل أن تصل إلى جوفي، أحسست أنها غير مرتبة، وإنما نابعة من مشاعر قوية، وما زلت لا أعرف متى تزوجنا ولدينا طفلة ذات سبع سنوات، يبدو أننا متزوجون على الأقل منذ ثمانية أعوام. جذبتني كلماته: تغلبي على تعبك يا حبيبتي؛ لأنني في أشد الاحتياج إليكِ في المكتب، فالعملاء يسألون عنك، وكأنني لا وجود لي، لقد أصبحتِ منافسة شرسة.

- أنا حقًّا بحاجة جمَّة إلى العمل، ربما تزول عني تلك الحالة المبهمة.
- حسنًا حبيبة قلبي، ما رأيك في يوم الأحد المقبل؟ فهناك مشكلة مهمة صاحبها سيأتي الأحد، وأريد منك متابعتها بحسك العالي.
- حسي العالي!
- نعم، لا أنكر أنك متميزة جدًا في الناحية الاجتماعية، ولديك معلومات هائلة، ولكن أكثر شيء يميزك حقًّا أنك تشعرين بصاحب المشكلة بشكل يطمئنه ويشعره بالارتياح، فينفذ جميع ما تقولينه له.
- ربما الإرهاق جعلني لا أتذكر شيئًا، أشعر أنني بحاجة إلى النوم.
- بالفعل أنتِ تحتاجين إلى الراحة، سأوصلك إلى الغرفة.

ارتكنت إلى ظهر السرير، وأغمضت عيني وظللت أفكر فيما يدور حولي حتى اختطفني النوم على غفلة.

*****

استيقظت على أنامل ناعمة توقظني، إنها منة تقابلني بابتسامتها الهادئة: "لقد أطالتِ النوم، ولديّ خبر مفرح".

- ما هو؟
- وجدت على مجموعة العمل أنهم يريدون خريجة علم اجتماع بالفرع الرئيس؛ لاضطرار زميلة إلى السفر إلى الخارج، وعندما تحدثت إلى المدير عنك، رحب بوجودك معنا وطلب مني السيرة الذاتية لك.

- حسنًا، سأرسلها لك الآن.

أخذت رقم هاتفها وحسابها على فيسبوك، وأرسلت لها سيرتي الذاتية على تطبيق "واتس آب"، وأخبرتني أنها أرسلتها له، لم تمض دقائق حتى رأيت عينيها تلمع، وتقول لي: "مبارك عليك، لقد وافق على عملك معنا، وأخبرني أن تذهبي للعمل يوم الأحد المقبل، حتى تتسلمي المكتب من الزميلة التي قررت الرحيل". شعرت بأحاسيس مرتبكة غير متجانسة، بالتأكيد فرحت لأنني سأعمل، ولكن لماذا يوم الأحد بالتحديد؟ ولماذا الآن ودون حتى مقابلة شخصية؟ لقد جنّ عقلي من التفكير، فما هو الواقع وما هو الحلم، الحل أن أظل أشاهد ما يحدث أو أن أفصل تمامًا بين الحياتين، فأنا هنا أخطط لمستقبلي وأبني حياتي الجديدة، وأشعر بدفء أسرة حانية، وهناك أعيش في الرغد والحب والرفاهية مع أسرتي الصغيرة.

مرّت الأيام دون أي جديد، فالحياة تسير بشكل روتيني، حتى جاء ليل السبت قبل موعد استلامي العمل، انشغل تفكيري بماذا يجب أن أرتديه في أول يوم عمل، أسمع أن الانطباع الأول يدوم، وأريد أن يكون حسنًا للغاية في كل شيء، يجب أن أحافظ على هدوئي وابتسامتي لأدخل قلوب العاملين هناك، شاركتني منة في اختيار الملابس، وظللت أفكر فيما يجب أن أفعل، وأقرأ كثيرًا في فن اللقاء الأول، وكيف أترك انطباعًا جيدًا لدى جميع الزملاء، وكيف أشعرهم بثقتي في نفسي حتى يثقوا فيَّ.

*****

غفوت عيني ثم استفاقت لأعود إلى بيت زوجي، أشعر به وهو يسحب مني هاتفي، ويقول: "كفاكِ قلقًا، أشعر كأنك أول مرة تعملين فيها، لا تقلقي ستعودين أنشط من ذي قبل".

لم أعد أتعجب كثيرًا كما كنت، فربما بدأت أتأقلم على هذا الاختلال الذي يحدث لي، وقررت أن أستغل راحتي معه، وخبرته في المجال وأنقل له ما بداخلي، فقلت له: "لا أعرف، أشعر بقلق غير طبيعي، حتى التعامل مع البشر لم أعد أستطيع فعله، أشعر أنهم كائنات غريبة عني أخشاهم وفي الوقت نفسه أريد أن يحبوني ويثقوا فيَّ، لا أعرف كيف أحل تلك المعادلة!".

- هذا أمر طبيعي يا حبيبتي، أنتِ منذ فترات طويلة مرهقة، خاصة بعد أن خذلك جميع من حولك بعد وفاة والديك، وعلى الرغم من مرور الوقت إلا أنك لم تشفَيْ بعد نهائيًا، أظن أنك تحتاجين للعمل أكثر من أي وقت آخر؛ حتى تطردي تلك الهواجس، ستشعرين براحة وانتصار عندما تجدين نفسك تحلين مشكلات أسرية معقدة، وتنجحين في إراحة نفوس غيرك.

نظرت إلى الهاتف، وقلت: "لم يعد هناك سوى ساعتين قبل أن أذهب للعمل".

- عليك أن تهدئي قليلًا وترتاحي لتقابلي زملاءك وأنتِ في كامل أناقتك وكامل ثقتك بنفسك.

جذبني إلى ذراعيه لأنام كطفلة صغيرة، شعرَت بأمان في كنف والدها فذهبت إلى النوم.

*****

استيقظت في بيت عم عبده، قبل الموعد بنحو ساعة، استحممت ورششت عطرًا منعشًا، ولبست الثياب الزرقاء التي اتفقت مع منة عليها، ربما اخترت الأزرق لأنه يمنحني راحة نفسية، ونقاءً ذهنيًّا وثقة بالنفس، تطيبت مرة أخرى، ووضعت مساحيق وجه هادئة تليق بالعمل، وخرجت لأتناول الإفطار مع منة وعم عبده قبل أن نخرج سويًّا لنذهب إلى المكتب، شعرت أنني مفعمة بالحماس والطاقة. وفور نزولنا تحركنا خطوات من المنزل للطريق الرئيس، وكادت منة توقف سيارة أجرة، إلا أنني أعربت لها عن رغبتي في ركوب "توكتوك"، فاستقلناه بالفعل، كنت أريد أن أجرّب كل شيء جديد، الشارع ممتلئ بالباعة الذي يشعُّون حماسًا وبهجة في بداية النهار، ولكن الشارع مزدحم بشكل أكثر مما كان عليه ليلًا، أخبرتني منة أن جميع الناس ينزلون في هذا التوقيت للعمل، كما أنه موعد الذهاب للمدارس. وصلنا إلى كوبري مشاة يسمونه "كوبري الخشب" واندهشت كثيرًا؛ لأنني لم أجده خشبًا، ولكن ربما كان كذلك فيما قبل، نظرت أسفله لأجد قضبان السكة الحديد، وعرفت أنه أنشأ لعبور هذه القضبان، شردت طويلًا في هذا الكوبري الذي يفصل بين مناطق مختلفة تمامًا وحيوات

متباينة، شعرت أنه كما النوم الذي يفصل بين حياتين لا أعرف ما الأصلية منهما!

تجولنا بعد الهبوط من الدرج قليلًا، حتى وصلنا إلى أول شارع التحرير، ربما مضينا خمس دقائق فقط لتتغير فيهم جميع أحوال الطرق والبشر، ولكن ما زلت أشعر بالألفة والونس، نظرت إلى منة، فشعرت أنها تفكر في إيقاف "تاكسي"، فقلت لها: "أريد أن استقل المواصلات نفسها التي تستقلينها كل يوم".

تبسمت وقالت لي: "لن تتحمليها".

- بالعكس، أنا أريد أن أخوض التجربة كاملة، عليّ أن أبني نفسي وأقوّمها حتى أشعر بحاجات الناس فيما بعد.

- كنت أتوقع أن تشعري بالاشمئزاز من المنطقة والمنزل، ولكن وجدت داخلك بعض التحفظ لعدم التأقلم فقط، فأيقنت أنك إنسانة نقية من الداخل على الرغم من أنك من الطبقة الراقية.
- أيَّة طبقة راقية! أنا لا أحب هذا التفكير ولم يعلمني أبي إياه، ربما لم تسمح الفرصة لي من قبل للتقرب منكم، ولكني وجدت لديكم ثروة لا يملكها أغنياء المال.
- ثروة؟!

- نعم، الرضا الذي يهبكم هذا الكم الهائل من الراحة النفسية، ويمنحكم طاقة الحب لتوزّعوها على غيركم.

استقللنا "ميكروباص"، ونزلنا أمام برج كبير يقع على شارع التحرير، صعدنا إلى الدور الثاني لنجد لافتة كبيرة مكتوب عليها مكتب الحياة للاستشارات الأسرية، دخلنا من باب زجاج إلكتروني، لأشم رائحة عطرة جميلة تبعث الهدوء والراحة في النفس. استوقفنا موظف الاستقبال الذي رحب بي بحفاوة بالغة، وعرّفته إليَّ منة كما عرفتني إليه، فمد يده للسلام علي، وقال: "شرفنا بمعرفتك"، ثم ذهبت مع منة إلى مكتب شئون العاملين لتسليم أوراقي واستلام الوظيفة، أخبرتني أن عقد العمل سأوقعه بعد شهر من عملي بعد تقييم رؤسائي، ولكن سآخذ مستحقاتي المالية كاملة، وأخبرتني أن منة ستكون المسئولة عني بشكل مباشر خلال تلك الفترة، حتى يعود الدكتور مراد من السفر، وأرسلت معي أحد أفراد الأمن لإيصالي المكتب وإعطائي مفتاحه.

جلست معي منة لتعرفني طبيعة العمل بالمكتب، وأنشأت لي حساب خاصا على التطبيق الخاص بهم، شعرت بارتياح شديد عندما جلست على مكتبي، وكأنها لم تكن أول مرة أراه، ولكن لم أتذكر أين رأيت هذا من قبل، ربما كانت تخيلات سابقة لحلمي أن يكون لي مكتبٌ مثله، ولماذا لا أمتلك هذا المكتب بالفعل فيما بعد؟! ربما يحدث ذلك.

اصطحبتني منة إلى بقية الزملاء لتعرفني إليهم، رأيت فيهم طاقة إيجابية جميلة، شاهدت رجلًا وامرأة يدخلان المكتب ممتعضين، ثم بعد أقل من ساعة يخرجون على وجههما البشاشة، أخبرتني منة أن طبيعة العمل تعتمد على الثبات الانفعالي، وأن نحيد عن مشكلاتنا الشخصية في أثناء العمل، حتى نستطيع مساعدة غيرنا وحل مشكلاتهم.

جميل هذا الإحساس الذي يغمرك عندما تكون سببًا في حل مشكلات الآخرين، فعندما التحقت بالجامعة، كنت أريد أن يعيش جميع البشر في سلام، وأن يغمر الحب كل الأسر، كنت أرى أن تلك أهداف سامية، فكم هو ممتع أن تصبح سببًا في إسعاد غيرك. ربما أكثر ما جذبني إلى عم عبده وابنته أنهما يحملان من الرضا ما يغمرهما بالراحة والدفء؛ لأنهما يسعيان بكل الطرق لمساندة غيرهما بكل طاقة وحب، ليتنا جميعًا نصبح كذلك، نرضى ونحب ونعطي، فنعيش في سعادة وسلام.

## ( ٥ )

أخبرتني منة أنها ستُدخل لي أول حالة خلاف أسري حسب توصيات الدكتور مراد أن أباشرها أنا، ليختبروا قدرتي في العمل، على أن تتابعني عن كثب، أعطتني مستندات بها بيانات الحالة، رأيتها لعادل حسني يبلغ من العمر ٣٦ عامًا، متزوج ولديه ولد وبنت، نظرت إلى منة وقلت لها: "هو لم يكتب طبيعة المشكلة".

- بعضهم يرغبون في كتمان المشكلة حتى يطمئن للمعالج، وعليكِ أن تشعريه بالأمان أولًا حتى يقص عليك مشكلته بأريحية، فلا تجبريه على الحكي، دعيه يفعل ذلك بحريته.
- حسنًا.
- مستعدة لمقابلته؟
- نعم، هل ستحضرين؟
- لا، حتى لا يشعر أنه محاصر، وسأتابع معك.

خرجت منة، ودخل عادل، شاب يبدو على وجهه العبس والضيق، هيئته عكس مستواه المعيشي المرفّه، رحبت به وسألته: "ماذا تحب أن تشرب؟".

كان يبدو عليه القلق والتوتر وهو يجيب: "لا، لا شيء".

- أنا بيري، سعيدة جدًّا بلقائك، ولكني أشعر أنك لست مستريحًا بشكل كافٍ.
- لا أبدًا، ولكن أول مرة أدخل مكتب استشارات أسرية، وعلى الرغم من أن صديقي نصحني به، إلا أن عديدا من الظنون تراودني.
- أيمكنني أن أعرف ما ظنونك؟ لا تقلق، كل شيء ستقوله في سرية تامة، فلن أسجل أي شيء، فقط أريد مساعدتك.
- ليس هذا بالضبط ما يؤرقني، ربما هو جزء، ولكن أخشى ألا تفهميني جيدًا، أنا أشعر أن لا أحد يشعر بي مطلقًا، جميعهم يرونها مشكلة عادية، ولكني حقًّا سئمت مني ومن زوجتي.
- احكِ لي المشكلة، وأعدك أن تجدني مختلفة عن هؤلاء الذين لم يشعروا بك، لأنني أرى أنه ليس هناك مشكلة عادية أو صغيرة، على العكس تمامًا؛ فكل المشكلات كبيرة، ولكن يمكن حلها.
- ولكن مشكلتي ليس لها حلٌّ، لقد وصلتْ إلى طريق مسدود، ولا أعلم ماذا يجب عليّ أن أفعل، حتى لا أشرد أبنائي الصغار الذين يحتاجونني.
- ما هي مشكلتك؟ ربما نجد لها حلًا سويًّا.

- أشعر أنني ضئيل في عين زوجتي التي تنقل هذا الشعور لأولادي دائمًا، فتشعرهم أنها الآمر الناهي في البيت، وأنها ربة البيت، وأن وجودي والعدم سواء، فأنا بلا قيمة أو جدوى في نظرهم.
- هذا ليس أمرًا هينًا على الإطلاق، ولكن كيف تشعر بهذا؟ أقصد ما المواقف التي تجعلك تقول ذلك؟
- منذ بداية زواجنا، كنت عندما أطلب منها شيئًا يصيبها الدوار أو تصاب بالإغماء، فكنت أفعله بنفسي، حتى أبسط الأعمال المنزلية، لم أجد حرجًا في إنجازها من أجل راحتها، ومع مرور الوقت اكتشفت أنها تدّعي التعب.
- كيف؟
- لأنها في أحد المرات سقطت مني على الأرض، وعندما انحنيت لأحملها وجدت عينيها قد فتحت ثم انغلقت، ولم أظهر لها أنني عرفت شيئًا، وفي اليوم التالي جئت منهكًا من العمل، وكنا اتفقنا أن تعدّ هي الطعام هذا اليوم، وعندما عدت لم أجد أي طعام، فسألتها قالت لي: "إنها مرهقة جدًّا، ولم تقدر على صنع الغداء"، فاشتطت غضبًا لذلك، فوجدتها تسقط من على الكرسي لم أسرع إليها، وإنما هاتفت طبيبًا يسكن في الطابق العلوي، فجاء ليخبرني أنها بخير ولا تعاني من أي تعب، فاقت وهي تشعر بالخزي، رفقت بها وسامحتها، وقلت لها: "أعرف أنك فعلتِ ذلك حتى تتجنبي غضبي، ولكن

أرجوكِ واجهيني بأي شيء أولًا"، وظللت جوارها ولم أشعرها أنها ارتكبت إثمًا، وكنت أساعدها في كل شيء، وعندما أطلب منها أي شيء تنفعل عليّ، وتشعرني أنها تفعل ما لا يمكن لغيرها فعله.

- أهي تعمل؟
- لا، لقد فضلت المكوث في المنزل لتؤدي واجباتها المنزلية حسبما قالت لي قبل الزواج، ولكنها لم ترغب في فعل أي شيء، فهي كثيرة الطلبات، وأنا أعمل في وظيفة تعود عليّ براتبٍ ليس بقليلٍ، كما أعمل عملًا خاصًّا يأخذ مني ما لا يقل عن ١٢ ساعة يوميًّا، وأرجع مرهقًا للغاية، وفي المقابل لم أجد أي شيء، لا يمكن أن أترك العمل الخاص؛ لأن مطالبها فوق احتمالات راتبي الذي يراه جميع الناس كبيرًا.
- كم الفترة التي قضيتموها سويًّا؟
- ١٠ سنوات، ومنذ أول عام والمشكلات لا تنتهي، وكنت صابرًا وأعبر بنا الأزمات، حتى لا نصل إلى فراق أو انفصال، وبعدها كانت قد حملت في ابني الأكبر وأصبح الارتباط أمرًا يصعب فكه.
- وماذا حدث مؤخرًا حتى تصل لهذه الطريق المسدودة؟
- كنت أحتملها كثيرًا خلال السنوات الماضية، ولكن الآن أصبحتُ في نظر أولادي بلا قيمة، حتى أصبحوا لا يستجيبون لكلامي وتوجيهاتي، وهي تدفعهم لذلك، فأنا أغلب الوقت خارج المنزل،

وهي من توّجه وتعاقب وتكافئ، أما أنا فليس لي وجود، حتى إنني عندما أمزح معهم وهي غاضبة مني تعنفّهم وتجعلهم لا يتجرءون على محادثتي، خشية منها.

- ولماذا تغضب منك؟
- طلباتها لا تنتهي، تريد سيارة وعندما أحضرها لها، تطلب النوع الأفضل، وعندما ننقل إلى شقة أفضل تريد الأفضل، ودائمًا تقارنني بمزايا أزواج صديقاتها، فهي لا تنظر إلى عيوبهم، ولكن فقط إلى ما يأتون به لزوجاتهم، لتفتخر أمامهن بأنني لا أرفض لها أي طلب، وأنا لا أريد أن أفعل ذلك، ولكنها تعجزني بالطلبات، وأحيانًا تدفعني إلى الديْن من كثرة الأعباء.
- هل يمكنك أن تخبرني ما أهم تلك الطلبات؟
- بالطبع، لقد أصرّت على إلحاق أبنائي بمدرسة دولية ذات مصاريف عالية، ووافقت لأن أبناء صديقتها وفاء في تلك المدرسة، ثم تطلب مني شقة في الساحل الشمالي لأن صديقتها رنا لديها شقة هناك، ثم تطلب مني تحديث السيارة كل عام، وإذا رفضت أو أشعرتها أنه ليس بإمكاني أن ألبي لها تلك الاحتياجات لأسباب مالية، تغضب وتسلط عليّ أبنائي. فمثلا، عند التحاق الأبناء بالمدرسة الدولية، اتفقنا أن تتكفل هي بكل واجباتهم وتعليمهم دون الحاجة إلى دروس خصوصية أو غيره، ولكن بعد أن التحقوا بالفعل، أصبح

كل شيء عبئًا عليّ، فأنا من أعدّ لهم الإفطار، وأوقظهم من النوم، وأتابعهم حتى يستقلوا الحافلة، وبدأت تطلب مني تحضير مصاريف الدروس الخصوصية، ولا يمكنني أن أرفض لأن القيامة ستقوم إذا فعلت. أصبحت هي من تأمر وأنا أنفذ، وليس لي خيارٌ أن أطلب حتى أقل متطلباتي، وإلا ستعاقبني كما تعاقب الأطفال، سئمت مني ومنها، لقد ضغطت عليّ بكل طاقتها حتى انفجرت، أشعر أنني فقدت كل رجولتي، وأنني مجرد ناقة تلبي الأوامر، ويا ليتها تعد لي الطعام، بل تطلب مني أيضًا أن أحضر وجبات سريعة من المطاعم.

- أخبرني أستاذ عادل، هل تزوجتما عن حب؟
- نعم، لقد حاربت أهلي من أجلها، كانت أمي – رحمة الله عليها– تشعر أنها لا تناسبني، ولكني أصررت عليها، ونفذت لها جميع طلباتها، وطلبات أهلها دون أي نقاش، حتى أشعرها بالأمان وأنني متمسك حقًّا بها.
- عزيزي، لقد كنت طيّعًا لها أكثر من اللازم، حتى شعرت أنها قد امتلكتك وكل شيء مسخر من أجلها، وفي الغالب كانت مدللة في أسرتها، فلم تتحمل المسئولية يومًا ولم يدربها أحد عليها.

كنت أقول ذلك لنفسي قبل أن أقوله لعادل؛ لأنني أيضًا كنت مدللة طوال عمري، حتى صدمت بالواقع الأليم، وأيقنت أنه لا خيار أمامي سوى بناء شخصيتي بنفسي، وتحفيزها للاعتماد على النفس وتحمل المسئولية كاملة، حتى لا أصبح عبئًا على أحد، وإلا ستلتهمني الدنيا ومن فيها، ولكن ربما زوجته تلك نالت كل ما تتمنى؛ لأنها وقعت في يد رجل طيب فلم تقدّر قيمته؛ فاستغلت حبه.

أفقت من شرودي على صوت عادل: "بالفعل، كانت مدللة كثيرًا، ولكن ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أنا أريد أن أطلقها، ولكن أخشى على أولادي، وقد تستحوذ على أذهانهم، وتقلل من شأني في نظرهم أكثر مما تفعل الآن، فهي تفعل ذلك وأنا مقيم معهم ويروني كل يوم، فماذا لو بعدت؟! لقد أصبحَت كالوحش الذي يهدد صورتي وكياني!".

- لا تخف يا عزيزي، فكما يقول المثل "إذا عُرف السبب، بَطَلَ العجب"، وقد وضعنا أيدينا على السبب، فعلينا أن نعالجه.
- أترين أنني أخطأت عندما كنت ألبي لها كل شيء؟! لقد كنت أظن أنني بذلك زوجٌ مثاليٌّ.
- أنا لا أقلل مطلقًا مما كنت تفعل، على العكس؛ فأنا أقدّر وبشدة جميع ما فعلته، أنت تمتلك قدرة رهيبة على التحمل وضبط النفس، حتى ظنته زوجتك ضعفًا في شخصيتك، والمرأة عادة تحب أن ترى زوجها ذا شخصية قوية.

- ولكنها تكره أن أحسم أمرًا من دونها، أو حتى أن أوجه أوامري للأولاد.
- نعم يا عزيزي؛ لأنها اعتادت ذلك، فأصبح بالنسبة لها حقًّا متأصلًا بأنك فقط تستجيب لما تقول، وتفعل كل ما تريد، فهي لا تشعر بقيمتك لأنك لم تبتعد عنها، لم تغضب منها يومًا، لم تسجل موقفًا حتى تراجع أفكارها، لم تشعرها يومًا أنها مخطئة، فأصبحَت ترى نفسها دائمًا على صواب، فتقلدت العرش، ومنحت نفسها كل الصلاحيات، وحرَّمت على غيرها الحكم في مملكتها.
- أفهم من حديثك أنه يجب عليّ أن أرحل عنها أو أطلقها؟
- بالطبع لا يا عزيزي، لم أقصد الطلاق بتاتًا، فقصتك تلك لها حل، ولكنها تحتاج إلى الصبر والقدرة على التحمل، ولكن بمنع نفسك عنها لمدة أيام، حاول أن تسافر إلى أي مكان لتستجم وتفكر كيف تعيد طبيعة العلاقة، وكيف تسترد قوتك وتصبح أنت المسيطر على المنزل، ولا أقصد بذلك القسوة أو الحكر عليها، ولكن لتعيد الأمور إلى نصابها الطبيعي، وبعدها سيحدث التوازن المطلوب، أريدك أن تشعرها أنك قد تبتعد حقًّا عنها وتتركها، لترى كيف ستدبر أمرها من دونك، ولا تترك لها من المال سوى ما يكفيها لقضاء الالتزامات الأساسية.

- أنا بالفعل أحتاج إلى أن أفصل عن كل شيء، ولكني لم أجرب يومًا أن ابتعد عنها أو أشعرها بغضب، ولكن هل ترين أن هناك أملًا في علاقتنا؟
- بالطبع أرى شعاعًا كبيرًا من الأمل، ولكن عليك أن تعيد الأدوار في العلاقة إلى نصابها الصحيح؛ فهي أمٌّ وربة منزل، وعليها تحمل أعباءها والتزاماتها نحوك، وأنت أيضًا عليك تحمل التزاماتك فحسب، ومساعدتها إذا لزم الأمر، ولكن بعد أن تحسم أمرك معها، ما أريده منك أن تشعرها بخطر البعد، وتتركها تجرب كيف تدبر أمورها في غيابك.
- فكرة جيدة، سأحاول فعلها، ولكن هل يمكنني أن أحادثك لمتابعة الأمر؟
- بالطبع، سنحدد لك موعدًا آخر كما تشاء لاستكمال الحديث ومعرفة ما آل إليه الوضع، وسأعطيك رقم هاتفي أيضًا، لا تقلق عزيزي، سأظل بجانبك حتى تعود العلاقة إلى مسارها الطبيعي، وتعيش معها في رخاء كما ترجو.
- أشكرك كثيرًا.

قمت ومددت يدي له بالسلام، فشعرت بيده تعبر عن امتنانه لي، ربما لم أشعر بمثل هذا الشعور من قبل، ولكنني حقًّا في قمة سعادتي؛ لأنني تمكنت من طمأنة شخصٍ أو مشاركته مشكلته والتفكير معه في حلها.

مضت نحو نصف ساعة حتى جاءت منة لتخبرني أنه حان الوقت لنذهب، فقد انتهت مواقيت العمل الرسمية، وتحدثنا عن حالة هذا الرجل واتفقت معي فيما قلته، وقالت لي: "كل شخص له طريقته في الحل، ولكن في النهاية الأمر يخضع إلى إحساسك بالحالة، وعمومًا لقد حزتِ على تقدير متميز في تقييم العميل الأول، وهي بشرى مطمئنة أنك في المكان الصحيح.".

- تقييم؟!
- نعم، لدينا بطاقة تقييم لا بد أن يملأها العميل فور خروجه من عند المعالج، وبناء عليه يتحدد مستواه ومدى لياقته في تلك المهنة.
- لم أكن أعرف ذلك، ولكنني حقًّا أشفقت عليه، تعرفين أنني أشتاق الآن إلى الكلمات المتقاطعة.
- حسنًا، فلنذهب إلى المنزل، وروّحي بها عن نفسك حتى أجهز الغداء.
- لا. أريد أن أساعدك أولًا، عليّ أن أقوّم نفسي أولًا قبل نصح الآخرين.

وصلنا إلى البيت، لقد بدأت أعتاد عليه، لم يعد غريبًا بالنسبة لي، أعددنا الطعام وشعرت بلذة تعلم أشياء كثيرة تمكنني من الاعتماد على نفسي، ثم تناولنا الغداء برفقة الرجل الطيب الذي أصبحت أشعر ببركته، قصصت قصة عادل عليه لآخذ رأيه، فقال لي: "هو المخطئ؛ لأن الحياة

ليست عطاءً فحسب، وإلا يفقد الإنسان ذاته، فبعضهم كان يشفق عليّ ويظن أنني أكافح، ولكن كل تعب العالم يزول مني عندما كنت أرى نظرة حب من زوجتي، كانت تشعرني أنني أحضرت لها النجوم، حتى وإن لم أحضر شيئًا، ولكنها كانت تقدر مشقتي، وتحرم نفسها حتى لا تحسسني بالعجز".

- ولكن زوجته ليس كذلك، هل لأنها لا تحبه؟
- ليس شرطًا، ربما لم تعرف معنى الحب ولا كيف تحب، فقد أشعرها دائمًا أنه متاح لها بين أيديها، فعلى الرجل إعادة التوازن لبيته دون إفراط أو تفريط.
- هل ترى أن اقتراحي له كان خاطئًا؟
- بالعكس يا بنيتي، أنتِ فعلتِ الصواب، فإذا بَعد عنها ستعرف قيمته، وإن لم تعرفها فهي لن تعرفها أبدًا، وسيصبح الأفضل له أن يبتعد عنها، وليبدأ حياته مرة أخرى مع من تقدره، فالحياة مليئة بالأعباء، والعلاقات خلقت لتخفف عن النفس البشرية وتقويها، فإن لم تفعل ذلك، تصبح بلا قيمة، وقد جعل الله -عز وجل- الزواج مودة ورحمة من الطرفين، وليس من طرفٍ واحد.

تعاونت مع منة في غسل الأطباق وأواني الطهي، ثم إعداد الشاي، واستمتعنا بحل الكلمات المتقاطعة، وبعدها شعرت بحاجة شديدة إلى النوم دفعتني إلى السرير.

## ( ٦ )

نهضت من الفراش في شقة زوجي، فكرت قليلًا كيف أعرف اسمه، لا يمكنني أن أساله، فقد يظنني فقدت الذاكرة أو جننت، ولكن لا يهمني الاسم، الأهم تلك الروح النقية التي تحتويني وتعتني بي دون أن أطلب، يكفيني هذا الشعور بالدفء والأمان، يكفيني نظرة عينيه التي تخطفني من العالم كله، يبدو أنني قد أحببته في أيام قلائل، أو ربما على مدار السنوات التي عشناها سويًّا، وأنا لا أشعر بها، أو نسيتها. نظرت إلى المرآة لأجد باقة ورد موضوعة على المنضدة، قادتني قدماي إليها لأجد بها بطاقة مكتوب فيه: "صباح الورد يا وردتي الجميلة"، تبسمت وفي قلبي شعور دافئ لا أعرف تفسيره، ولكن ما شعرت به أنني ضممت الورد إليّ، جلست أمامه أتأمل ألوانه المشرقة، حتى جاءت إليّ القطة المشمشية الجميلة تعانقني وتختبئ بين ذراعي. ظللت أتحسس شعرها وأنا أسألها عن اسمها وعن حقيقتي: "أتظنين أيتها القطة الساحرة أنني أحلم أم أن هذا هو الواقع؟"، شعرت بها تقول لي: "ليس مهمًّا أن يكون ذلك واقعًا أم خيالًا، المهم أن تستمتعي بما تشعرين به الآن، فلا تضيعي وقتك في البحث عن تساؤلات لن تجدي". احتضنتها وأنا أقول لها: "حقًّا يا قطتي، ولكني أشعر أنك

قطتي فعلًا، أنتِ الواقع"، نظرت إليّ القطة بتعجب، وكأنها تقول: "ألم نتفق أن تدعي هذا التفكير الأحمق وتستمتعي". سمعت صوته وهو ينادي بوسي، إنه هو، فصوته يسمعه فؤادي قبل أذني، اقترب مني، وقال: "إنني أحقد على بوسي؛ لأنك تحتضنينها بكل هذا الحب".

- أنا أحب بوسي؛ لأنها ذكية وتشعر بي، وتساعدني في التفكير.
- إذن اعتبريني قطًّا لعلني أستطيع مساعدتك.
- لا تحتاج أن تصبح غير ذاتك حتى أشعر بك، فأنا وإن كنت نسيت بعض الأشياء، فقلبي لن يستطيع أن ينساك.
- لم أسمع منك كلمات عطرة منذ فترة، كم أنا سعيد أنك قد أشفقتِ عليّ يا ضي عيني! أتعرفين أنني كل يوم أسأل نفسي: لماذا عشقتك أنتِ من بين نساء العالم؟
- وهل وجدت جوابًا؟
- نعم، لقد قارنتك بجميع النساء فلم أجد مثلك، فأنتِ تحملين روحي، ومن دونك أنا مجرد جسد أجوف هش ممزق الوجدان، أرجوكِ لا تقلقيني عليك مرة ثانية، فلقد ذقت لوعة الاشتياق.
- أنا أيضًا أشعر أن شيئًا غامضًا يجذبني نحوك، لا أعرف ما هو، ولكن أريد أن أترك نفسي لك؛ فكما شئت سر بي.
- لقد نسيتِ جودي ابنتنا، هيا لنطمئن عليها إذا أردتي.
- بالطبع سآتي معك.

طوال الوقت أشعر أنه يحتويني ويساندني في كل خطوة أخطوها، كان يغمرني كل لحظة بجميع طاقات الحب، فيقويني على كل ما يواجهني، ذهبنا إلى حجرة جودي، إنها جميلة تشبه ذوقي حقًّا، ولكني لا أعرف كيف ومتى اخترتها؟ اندفعت نحوي جودي مهرولة فور رؤيتي، وكأنني بعيدة عنها منذ أعوام، قالت لي: لا تتركيني ثانية أمي، فأنا أحبك جدًّا.

- عفوًا يا صغيرتي؛ ليس بيدي.
- أعلم يا أمي أنك كنت مريضة، ولكني لا أريد أن أراكِ هكذا ثانية، فأنتِ نبض البيت كما يقول أبي دائمًا.

أجبرتني تلك الفتاة الشقية على احتضانها بشدة، وجعلتني أكره نفسي لأنني لا أتذكرها، فكيف أنسى تلك الفتاة الرقيقة، اجتذبني زوجي ليسألني: "هل تودين أن تغيري جوًّا قبل الدخول في زحام العمل؟".

- لا أستطيع تحديد رغبتي، ولكن كل ما أحتاجه هو الشعور بدفئكم.
- إذن، فلنذهب معًا لقضاء عطلة قصيرة في أي بلد تختارينه، لقد أخذت إجازة بالفعل من العمل ورتبت أمور المكتب في غيابنا.

تبسمت واكتفيت بتحريك رأسي إيجابًا، لأنني أرغب في الاقتراب منه فقط، أريده معي، أريد أن أعرفه جيدًا، أريد أن أشبع عيني منه قبل أن ينتهي هذا الحلم الجميل.

- ما رأيك في باريس؟
- باريس؟! لا أعرف.

- إنها بلدك المفضلة، لقد قضينا هناك شهر العسل، وأريد أن أجدده معكِ يا حبيبتي.
- وماذا سنفعل مع جودي؟
- جودي وبوسي سنتتركهما مع المربية ترعاهما، واطمئني سنحدثهما يوميًّا من هناك.
- يبدو أنك رتبت كل شيء.
- نعم، أضعك أمام الأمر الواقع حتى لا تتردي، لا أريد مطلقًا أن أحكر عليك، ولكني لا بد أن أخرجك من تلك الحالة بأيَّة صورة، حتى وإن دفعت عمري كله ثمنًا لإسعادك فلن أتأخر عليك.
- يكفيني تلك المشاعر النبيلة يا حبيبي.

كانت تلك أول مرة أقولها له، ربما جاءت بسرعة أو ربما جاءت متأخرة، ولكني أحسها بكل جوارحي، فكيف أرى هذا الوجه المشرق، لهذا الرجل الوسيم الممتلئ بالمروءة والشهامة يعتني بي ويدللني بكل تلك الطرق ولا أشعر تجاهه بأي شيء، إذا لم أفعل سأكون حَجرًا. وعندما سمع تلك الكلمة ضمني متلهفًا، شعرت أنه يريد أن يدخلني في صدره من شدة الفرح، فكم هو ممتع أن تجد شخصًا قويًّا يحبك كل هذا الحب حتى أنه يود أن يفني ذاته في ذاتك. أخبرني أنه قد حجز التذاكر بالفعل، وأنهى إجراءات السفر، وحدد موعدًا له الأسبوع المقبل، لم ينشغل ذهني طويلًا بالتفكير في أمر السفر، لأنه اجتذبني إليه وأراح رأسي على رجله، وظل يداعب شعري حتى تهت في حنانه.

*****

فتحت عيني على صوت الجرس، إنه المنبه يوقظني في بيت عم عبده لكي أنهض مسرعة حتى لا أتأخر عن مواعيد العمل، عليّ أن ألتزم في تلك الأيام الأولى حتى أثبت ذاتي، لا أريد أن أفكر ثانية في "ما الواقع وما الحلم؟"، فلقد أحببته حقًّا، ولا أريد أن يضيع مني حتى لو كان مجرد حلم.

مرت الأيام وحياتي تسير على النهج نفسه، سواء في حياتي مع عم عبده أو حياتي مع زوجي الذي ما زلت لا أعرف اسمه، لقد فصلت بينهما ولم أعد أفكر في "ما الحقيقة؟" لأنني مستمتعة في الحالتين، هنا أثبت ذاتي وهناك أشعر بسعادة لم تعتريني هكذا من قبل.

وبعد أيام، خرجت كالعادة برفقة منة، نبهني المكتب أن اليوم موعد لقاء عادل، وظللت أفكر في حاله، وماذا فعل وكيف يمكن تقويم زوجته وإشعارها بالمسئولية، خطر بذهني أن أطلب منه أنا أقابلها، اقترحت تلك الفكرة على منة، فنبهتني أن في كثير من الأحيان يرفض الشخص ذلك، لأنه يظن أن الطرف الآخر سيرفض، أو أنه سيشعره بالعجز عن حل مشكلاته واللجوء إلى معالج آخر.

- كيف ذلك؟ جميعنا نحتاج إلى أطراف أخرى لحل مشكلاتنا؛ فمن يقع بقلب المشكلة دائمًا لا يراها جيدًا.

- أتفق معك كثيرًا، ولكن لا تتناسي أن نظرة المجتمع إلى المعالج الاجتماعي لا تزال قاصرة، وكثيرون يرفضون الذهاب إلى مكاتب الاستشارات الأسرية، حتى ولو كان ملجأهم الوحيد.
- أتفهم ذلك مع الأسف.

سكتت برهة قبل أن تتلجج في الحديث، وهي تقول لي: "كنت أود أن أحكي لكِ شيئًا".

- بالطبع كلي آذان صاغية.
- أتذكرين إسلام الذي يجلس في المكتب المجاور لي؟!
- نعم، شخص لطيف جدًّا، كثيرًا ما يعرض عليّ المساعدة، ولكن لماذا؟
- إنه صديقي منذ الجامعة، واقتربنا شيئًا فشيئًا حتى اعترف لي بحبه، ولكن هناك مشكلة.
- ماذا؟
- إنه من عائلة غنية، هو يعرف أنني أقطن في حي بولاق، ويعرف وضعنا جيدًا، وكثيرًا ما راجعته في هذا الموضوع، وطلبت منه أن نظل أصدقاء، ولكنه يرفض ذلك بشدة، في حين أنه نفسه يتوجس خيفة من مواجهة أسرته.
- وكيف يخطط لعلاقتكما إذ كان يتخوف من مواجهة أسرته؟

- إنه يريد أن يحقق ذاته أولًا، ويريد شراء شقة من ماله الخاص بعيدًا عنهم، حتى لا يحتاج إليهم إذا أبوا، وسيقتنعون مع مرور الوقت بي.
- تفكير جيد وعملي، أحب الرجل الذي يعتمد على نفسه. فما الذي يقلقك؟
- أخاف من مرور الزمن دون أي تطور، وأنا لا آمن مكر الزمن، كثيرًا ما أفكر فيما يمكن أن يحدث في المستقبل، أنا لا أريد إهانة كرامتي أو المساس بأي شكل من الأشكال بأبي، لأنه صاحب الفضل عليّ في كل شيء.
- تعرفين، قصتك تشبه قصتي مع فادي، ولكن الفرق أنه عندما أصبحت مكانك تخلى عني، أما إسلام فهو متمسك بك، الرجال قليلون في هذا الزمن، فإذا وجدتِ رجلًا فتمسكي به بكل عزمك.
- وكيف آمن الزمن؟
- أنا تحديدًا، لا يمكنني أن أطمئنك في هذا؛ لأنني تعرضت لظروف قاسية قادها إليّ الزمن، ولكن تعلمت منك أنتِ وأبيك أن الرضا خير حصن من غدر الزمن، وتعلمت أيضًا أن الإنسان إذا سعى حقًا لما يريده سيمهد له الله الطريق، انظري إليّ، فهل كنت أتوقع من فترة قصيرة أن أعود لحالتي الطبيعية بعد أن هلك وجداني، وتحطمت جميع آمالي، ولكن هدايا الله تأتي في الوقت المناسب، والآن أنا أعمل وأشعر بثمرة كفاحي.

- كلماتك مريحة.
- تعلمتها منك ومن أبيك.
- تربيت حقًّا على الرضا والقناعة، ولكن أحيانًا ينتابني شعور بقسوة الزمن، فلو كان حالي مختلفًا فلن يكون موقف إسلام حائرًا.
- لو كان حالك مختلفًا لما عرفتِ معدنه الحقيقي، هو يفكر ويخطط من أجل إزالة جميع العراقيل، اطمئني.

وصلنا إلى المكتب، واليوم فقط ركزت في نظرات إسلام الممتلئة بالحب لمنة، إنها تلك اللمعة التي تطفو على ضي عين العاشق فتفضحه، أشعر أنه يستطيع أن يتحدى كل الظروف لأجلها، وسعيدة أنها فتحت قلبها لي، وأنها قابلت الحب مع رجل يستحقها. دخلت المكتب وشردت بعيدًا في زوجي، أشعر أنني أشتاق إليه على الرغم من أنني أراه كل يوم، ولكن أشعر طوال الوقت أنني أحتاج إلى بسمته المطمئنة ونظرته الحنونة، أفتقد اهتمامه الزائد بي، ورغبته الدائمة في إسعادي. استفقت على هاتف من الاستقبال يخبرني أن عادل قد وصل، استعدت ذهني لأركز في أول حالة لي، دخل عادل وقد تلاشى الإحباط والعبوس من وجهه، قمت لتلقي السلام، ثم دعوته إلى الجلوس.

- أراك أكثر تفاؤلًا الآن، أخبرني ماذا حدث؟
- لقد فعلت ما اقترحتِه عليّ، قررت أن أبعد بضع أيام، وأغلقت هاتفي ومنحت نفسي فرصة للتفكير الجاد إذا انفصلنا.

- وماذا حدث؟
- ربما طوال الوقت كنت أفكّر في أنني ما زلت أحبها، كل ما كان يدور في ذهني هي، أهي أيضًا تحبني؟ أم أنها تريد مصباحًا سحريًّا ينفذ لها جميع طلباتها؟ هي تعلم جيدًا مدى حبي لها، ولكن أنا لم أشعر بحبها مطلقًا، ولم أعاتبها على ذلك من قبل، وقررت أن أواجهها قبل أن أبتعد، قلت لها جميع ما يدور في ذهني ووجداني، وأعلمتها أنني أفكر في الانفصال؛ لأنني لا أشعر بقيمتي كرجل، وتركت لها مهلة غيابي لتفكر إذا كانت تريد إنهاء العلاقة بيننا بالمعروف مثلي.
- وماذا كان ردها؟
- لم ترد، فكانت في غاية الذهول والدهشة، وكأنني أحدثها عن شيء لم نعشه سويًّا، قالت لي: "لماذا لم تقل كل ذلك من قبل؟! أنا لم أقصد الضغط عليك بهذا الشكل أو الإساءة إليك؟"، أجبتها بأنني كنت أخشى مضايقتها حتى على حساب نفسي، ولكن قد فاض بي الكيل، ولا بد من نقطة حسم.
- حسنًا..
- أخبرتها أنني سأختفي تمامًا من حياتها، حتى أسترد أنا حياتي ونفسي، فلم يعد بي أي حطام يمكن استغلاله، فقد أصبحت عدمًا، وبالفعل اختفيت في تلك الأيام.

- وبعد ذلك، ماذا حدث؟
- كنت أحتاج حقًّا إلى استرداد ذاتي، وشعرت بذلك كثيرًا خلال فترة انعزالي، وعندما فتحت هاتفي وجدت اتصالات متعددة منها ومن أصدقائي المقربين، لقد سألتهم عني لتطمئن عليّ، أو ربما لأنها تريد شيئًا لا أعرف، ولكن ما أعرفه أن ذلك يساعدني في استرداد نفسي.
- وهل حدثتها؟
- لا، جئت أستشيرك أولًا، لقد أخبرني أصدقائي أنها تريد الاطمئنان عليّ وإرضائي بكل الطرق، وتطلب منهم أن يعيدوني إليها، لا أعرف أهذا من قلبها أم حرصًا على صورتها أمام الناس، ولكني بدأت أشعر بأهميتي بعض الشيء.
- أظنها بالفعل تريد إرضاءك، ربما هي اعتادت على فعل كل ذلك وأنت لا تراجعها فاعتبرته الأصل، وأصبح حقًّا مكتسبًا، وأنت الآن في طريق تصحيح المسار، فعليك أن تضع شروطًا وقواعدًا حاسمة لا يمكن الإخلال بها.
- كيف؟ أقصد أيَّة قواعد؟
- لا بد أن تكون أنت صاحب الكلمة في البيت دون أن تحكر عليها، اتفقا سويًّا، ولكن أمام الأطفال لا بد أن تظهر هيبتك، حتى لا تختل الموازين، أخبرها أنك ما زلت تحبها، ولكن تريد حياة سوية بينكما، تريد أن تشعر برجولتك، أنت المنفق على البيت ولا بد أن يعلم

الأطفال ذلك، اذهب أنت لسداد مصاريف المدارس، واذهب لهم بها، وامنحهم الهدايا والشيكولاتة، اصطحبهم كل فترة لشراء لوازمهم، حاول أن تشتري لهم لعبة كمكافأة لأفعال حسنة يؤدونها، أما زوجتك فأعطها مرتبًا شهريًّا، وإذا قضت عليه لا تعطها غيره حتى تتعلم تحمل المسئولية، وقضاء حاجاتها بما تملك فقط، اجعلها تشاركك كل همومك، وافعل كل ذلك مغلفًا بمشاعر الحب داخلك.

- كل تلك الأفكار رائعة، إذا أبدت هي فعلًا رغبة حقيقية في الرجوع.
- لديها الرغبة وستوافق على جميع شروطك، وعندما تفعل هاتفني لتهنئتك.
- كيف عرفتِ ذلك؟
- لا تندهش إذا قلت لك إنه مجرد شعور قوي، لأنني وضعت نفسي بدلًا منها.
- أتمنى ذلك، وإذا حدث ستكونين أول من أخبره، وأنا ممتن جدًّا لكِ لأنك وضعتِ قدمي على الطريق الصحيح.
- هذا واجبي ودوري، ويهمني أن تعيش سعيدًا.

خرج عادل بعد أن تبادلنا التحية، وبعدها دخلت منة والسعادة ترتسم على وجهها، فتقييمه لي ممتاز وهذا يعزز موقعي في المكتب، لأن التقارير تذهب بشكل دوري إلى دكتور مراد، لا أعرف لماذا يرتجف قلبي

كلما سمعت اسمه، بالتأكيد هناك موقف حدث بيننا، حتمًا سأتذكره عندما أراه.

- متى سيأتي دكتور مراد، أريد التعرف إلى تلك الشخصية التي تتغنون بها؟
- ليس أقل من شهر، فهو في سفرية عمل، إنه مشهور في جميع دول العالم، ويأتيه كثيرٌ من الدعوات لإلقاء المحاضرات، والمشاركة في المؤتمرات الدولية، ولكنه يتابع كل أخبار المكتب من فرنسا، إنه إنسان مدهش ستستمتعين بالتعرف إليه.
- أستمتع؟!
- نعم، إنه رجل بشوش هادئ مرح، مجرد رؤيته تمنحك جرعة من التفاؤل والحماسة والبهجة، كما يقولون يشع طاقة إيجابية، فيه جميع صفات الرجولة، لن يشعرك مطلقًا أنه مديرك أو رئيسك في العمل.
- كفانا كلامًا عنه لأنني اقتربت من الوقوع في غرامه، دعينا نستعد للرحيل لقد أنهكت اليوم.

وبالفعل عدنا إلى المنزل وأعددنا الغداء، وقضينا يومًا كأي يوم، قبل أن أسرع إلى السرير، ليس لأنني مرهقة، ولكن لأنني اشتقت كثيرًا إلى دفء زوجي.

## ( ٧ )

استيقظت على صوت زوجي الحنون يهمس في أذني: "هيا يا حبيبتي حتى نذهب للمطار"، فتحت عيني لأرى ابتسامته الهادئة تدعوني للتفاؤل، تبسمت له قبل أن يطبع على جبيني قبلة حانية، ويصطحبني لتناول إفطارٍ خفيفٍ قبل الانطلاق إلى المطار. ونحن على مائدة الإفطار جاءت إليّ بوسي تنظر إليّ نظرات استعطاف ممتزجة بعتاب، وكأنها تقول لي: "لا تتركيني وحدي"، جذبتها إليّ وأجلستها على رجلي "إنها قطة حنونة جدًا ومسلية للغاية" ولم تظهر شقاوتها مطلقًا اليوم، فهي تعرب عن حزنها لسفري. للحظة شعرت بضعفي أمامها وأنني أريد أن آخذها معي، ولكن ظهرت ابنتي الجميلة تطمئني: "لا تقلقي عليها يا أمي، سأعتني بها جيدًا كما تفعلين". ضحكت لأنها شعرت بما يدور في وجداني، فضممتها إلى صدري وتحسست شعرها الناعم الطويل، فأنا أتعرف إليها من جديد، وأريد أن أفعل ذلك دون أن تشعر هي أو يشعر أحدٌ.

انتبهت إلى زوجي الذي وجدته يتمعن في ملامح وجهي، وكأنه يتأمل تصرفاتي، لمحت في عينيه لمعة حب لم أرها من قبل، إنني أحب صورتي في ضي عينيه، ربما لم أشعر من قبل أنني أحب نفسي سوى عندما أراني في

عينيه، أرى نفسي في مرآته ملكة متوجة على عرش قلبه، فأنا على يقين أنه لم ير امرأة غيري، وأنا في الواقع لم أر رجلًا مثله حتى أكاد أجزم أنه من وحي الخيال. هذا هو الحب الذي لم أشعر به من قبل، الحب الذي يأسر كل كياني ووجداني وجوارحي، يستطيع أن يحكم قبضته عليّ ويهدئ من روعي ويطمئنني، تجتاحني كلماته وهو يهمس إليّ ليشعرني بلهيب شوقه، يفقدني عقلي، أكاد أذوب في بحر حنانه، أشعر أنني بحاجة إلى الغوص داخله، أريد أن أقطن فؤاده، فهو بلا جهد يجذبني لأغرق فيه. لقد أصبحت معه طفلة صغيرة يقودني، يوجهني، يدعمني، يسندني، يحميني، وأصبح هو الهواء الذي أتنفسه، والسد المنيع الذي يحميني، والبيت الذي يأويني، والبوصلة التي ترشدني، والشمعة التي تنير لي طريقي، لقد أصبح لي الوطن بأسره. ولدي شعور بالنشوة لم أشعر به من قبل، لم أتخيل أن هناك تلك المتعة المبهجة المطمئنة المريحة، اليوم أستطيع أن أقول إنني سعيدة؛ لأنني أسيرة قلبٍ لا يتردد أن يضحي بعمره بأكمله من أجل راحتي.

افقت على صوت زوجي ينبهني أن علينا أن ننطلق فورًا حتى لا تفوتنا الطائرة، نهضت لأستبدل ملابسي، وودعت جوري صغيرتي الناضجة التي قالت لي: "استمتعي يا أمي قدر المستطاع، أريدك تعودين إليّ مشرقة كما كنتِ". تبسمت لها وأنا أشعر أنها تفهم كل شيء، فهي ليست مجرد طفلة ذات سبع سنوات، وإنما هي إنسانة واعية، أدركت ملامسة قطتي الجميلة لرجلي وهي تحاول احتضاني، رفعتها إلى صدري فارتكنت

إليه وكأنها تحاول الاستكفاء مني، نظرت إليها وهي ترفع نفسها لتدفن رأسها في رقبتي وتعانقني، لتترك داخلي إحساسًا عميقًا بالاحتواء. استقللنا السيارة إلى المطار، ودخلنا لإتمام إجراءات ما قبل السفر، ثم صعدنا إلى الطائرة، وأرجعت ظهري إلى الخلف حتى أستريح من رجة صعود الطائرة، وأغمضت عيني وأنا أشعر بلمسات زوجي التي تغمرني بالراحة فذهبت في سبات عميق.

*****

فتحت عيني لأجد منة تحاول إيقاظي للذهاب إلى العمل: "هيا، لقد أعددت الفطور"، قمت من السرير وذهبت معها لتناول الإفطار ثم ارتديت ملابسي، وذهبنا سويًّا إلى المكتب حيث وجدت لديّ عميلة جديدة ومهمة اجتماعية ثانية، نظرت إلى بياناتها، وجدتها منار تبلغ من العمر ٢٦ عامًا، متزوجة منذ عامين وليس لديها أبناء. دخلت إليّ، وجدتها جميلة الهيئة وملامح وجهها جذّابة، رشيقة القوام، ولكن وجهها يعتريه الشحوب، وعينيها يعتريها التردد، حاولت طمأنتها: "مرحبًا بك عزيزتي منار، سعيدة بتشريفك لي".

- أنا أسعد بالطبع.
- هل هذه أول مرة تأتي إلى مكتب استشارات أسرية؟
- نعم.

- أود أن أطمئنك أن كل ما نقوله هنا لن يخرج من هذا المكتب؛ فأنا لا أسجل أو أكتب، كل ما يهمني أن تستعيدي إشراقتك مرة أخرى.
- حسنًا، لقد سمعت كثيرًا عن هذا المكتب، وعن الدكتور مراد وسُمعته الجيدة، وأشعر بارتياح للمكان.
- أهم شيء أن تشعري بارتياح، وأتمنى أن ترتاحي لي أيضًا؟
- بالطبع.
- إذن، ما الذي أطفأ بريق عينيك؟
- أشعر حقًّا أنني انطفأت بكل ما بي، فرحتي ذهبت بلا رجعة، لم يعد لدي أيَّة ثغرة تعيد لي حياتي الطبيعية سوى الطلاق.
- ماذا حدث لذلك؟
- أنا متزوجة منذ ثلاث سنوات عن قصة حب كبيرة، تحدينا جميع المعوقات حتى تجمعنا، ولكن بعد أقل من ستة أشهر بدأ الجحيم يتسرب إلى بيتنا؛ لأنني لم أحمل بعد، والدة زوجي كانت لا تكلمني أو تزورني إلا لتكسّر من عزيمتي، وتشعرني أنني أنثى ناقصة، ظللت عامين أذهب إلى الأطباء دون أيَّة جدوى، جميعهم يخبرونني أني على أتم حال، ولدي القدرة على الإنجاب، ولكن الله لم يشأ بعد.
- وما موقف زوجك من هذا؟
- كان لا يفعل أي شيء، ويقول لي: "لا تشغلي ذهنك بذلك، نحن سعداء سويًّا".

- وماذا حدث بعد ذلك؟
- كنت أتحمل أسلوب والدته وأهله المهين من أجله، وأتحمل تهديداتها بتزويجه من أخرى، وأتحمل سلبيته معهم، وأقول يكفي أنه لم يكدّرني يومًا، حتى اكتشفت الحقيقة المرة.
- ماذا؟
- بعدما أكد لي جميع الأطباء أن ليس بي أيَّة مشكلة، طلب آخر طبيب ذهبت له إجراء تحاليل لزوجي، فلربما تكون المشكلة لديه، وبالفعل أجرى الفحوصات، واتضح أن لديه مشكلة ولكنها قد تحل بالعلاج.
- حسنًا، طالما هناك علاج، ما المشكلة؟
- المشكلة أنه لا يريد تناول الأدوية، ويقول إنه ليس بحاجة إلى أطفال، ولننتظر القدر، ولكنه طلب مني ألا أقول لأحد ذلك، وبالفعل فعلت ذلك لمدة ستة أشهر، ولكن ضاق بي الأمر، بسبب كلمات والدته شديدة القسوة، وهو سلبي للغاية.
- أشعر أنك لا تزالين تحبينه؟
- نعم، لقد تزوجنا عن قصة حب طويلة، وازداد هذا الحب بعد الزواج، فهو حنون ولطيف معي، ولولا تدخل عائلته لكان الأمر اختلف.

- حسنًا، لا بد أن يشعر بهذا البركان الثائر داخلك، حتى تشعل برودته تلك، ويتحرك، على الأقل فلتخبري عائلته وليعلموا أن العيب منه، ويمكن علاجه، ولا بد أن تفصلي حياتك تمامًا عن عائلته، فقد أسستِ بيتك المستقل، لا تدعي أحدًا يتدخل فيه.
- ولكن كيف أفعل ذلك، وهو لا يشعر بأن هناك أيَّة مشكلة؟!
- أشعريه بالخطر، لا بد أن يدرك حجم المعاناة التي تتعرضين لها، واجهيه بكل ما في جوفك، أخرجي كل ما بداخلك، وضعيه أمامه، واطلبي منه ما تشائين، واتركي له الحكم ودعيه يتصرف.
- أخشى أن تتحول المواجهة إلى صراع ينتهي بالطلاق.
- لا بد أن تتغلبي على خوفك ذلك، فأنتِ الآن تتحدثين عن أن الحل الوحيد هو الطلاق وفي الوقت نفسه تخشين منه، لا بد من نقطة فاصلة ليعلم كل منكما حدوده، ولتمتنع أمه عن التدخل في حياتكما، حتى إن قررتما عدم الإنجاب، فلا شأن لأحد في ذلك، واجهي ولا تخشي من شيء، المهم أن تستعيدي صفاءك.
- سأفعل ذلك.
- وإن شئتِ نتحدث معه.
- لا أعلم أسيقبل أم لا، ولكن سأواجهه أولًا ثم أخبرك.
- حسنًا عزيزتي، سأنتظرك، وإن وددتِ مساعدتي في أي وقت فأنا موجودة.

ودعتها وأوصلتها حتى باب المكتب، ثم عدت لأشرد قليلًا في مشكلتها، قبل أن تدخل إليّ منة وعلى وجهها الامتعاض.

- ماذا بكِ حبيبتي؟
- أشعر باختناق، لقد سئمت من كل شيء.
- اهدئي وأخبريني ماذا حدث؟
- أخبرني إسلام أن أهله يضغطون عليه لتزويجه من ابنة عمه، ولم يعد لدي طاقة لأتحمل أي شيء.
- وما موقفه؟
- لا شيء، كان يناقش الأمر معي فقط، فماذا كان يجب عليّ أن أقول؟!
- وما ردك عليه؟
- قلت له: حسنًا تزوجها. ثم ذهبت.
- بالتأكيد سيتعامل معهم، اهدئي عزيزتي.
- لم يعد لدي ثقة كافية به، هو لا يريد إخبار أهله عني حتى ينتهي من تكوين ذاته، ولكني أرى أنه بذلك يتبرأ مني ويشعرني بالنقص، كيف لي أن أطمئن وهو يشعرني بعمد أو دون عمد أنني أقل منه، ويخجل من إعلان حبه لي أمامهم؟
- وإن كان الأمر كذلك لماذا يصارحك بكل ما يدور بذهنه؟! ولماذا أخبرك بما حدث؟ كان يمكنه أن يفاجئك كما فعل فادي معي.

- ربما يحاول التمهيد حتى لا يسقط من نظري مرة واحدة، ويشعرني أنه مجرد ضحية مغلوب على أمره.
- لا تسبقي الأحداث؛ دعيه يتعامل.
- لن أسبق، ولكني لن أنتظر منه شيئًا حتى لا أتألم ثانية.

قاطعتنا رنات هاتفي، إنه عادل "ترى ماذا حدث؟ لعل مشكلته قد انتهت أو أكون قد فشلت".

- مرحبًا عزيزي عادل.
- أهلًا بك، أتمنى أن تكوني بخير.
- أخبرني ماذا حدث؟
- لقد وعدتك أن تكوني أول من أخبره بما حدث، ولا أعرف كيف أشكرك على مقترحاتك الرائعة، لقد وافقت على كل شروطي، وأخبرتني أنها لم تكن تعلم أن كل ذلك يؤذيني لهذا الحد، وبفضل الله تحسنت كثيرًا معي بعد ما حدث.
- حسنًا، لقد أسعدتني كثيرًا، بارك الله لكما، وأتمنى أن تعتني بها أنت أيضًا، حتى لا تشعر أنك تريد السيطرة عليها فحسب.
- بالطبع، أشكركِ كثيرًا.
- هذا واجبي، مرحبًا بك في أي وقت.

أغلقت الهاتف، وأنا سعيدة للغاية أنني قد نجحت في أول مهمة أوكلت إليّ، في أول خطوة لمشواري المهني، شكرًا جزيلًا يا الله. قاطعتني منة: ماذا حدث؟

- إنه عادل، يخبرني أن مشكلته قد انتهت تمامًا والوضع أصبح على ما يرام.
- جميل، لقد نجحتِ في المهمة الأولى.
- أشعر بارتياح كبير.
- وستشعرين هكذا مع كل مشكلة تكونين سببًا في حلها.
- الأهم عزيزتي أن تتفاءلي أنتِ أيضًا، وإذا أردتِ أن أتحدث معه، سأفعل ذلك فورًا.
- لا، أريده أن يتخذ قراره دون أي ضغوط.
- حسنًا، هيا بنا إلى المنزل لنستطيع تحضير الغداء قبل مجيء عم عبده.
- هيا بنا.

خرجنا من المكتب، وقررت أن أحضر لها عصير مانجو لتزيح عن نفسها الحزن، فلقد سمعتهم يقولون إنها تنشّط هرمون السعادة، شربنا العصير وعدنا إلى المنزل سيرًا، حتى نخرج الطاقة السلبية التي حلت بنا، تحدثت إليها أن شعوري يميل إلى أنه لا يريد التهرب منها، وإنما يود تعزيزها حقًّا، وأن يعتمد على نفسه حتى يستطيع الوقوف أمام أهله بثقة، وعدم السماح لهم بالنيل منها. واشترينا بعض الخضروات والبقوليات من

السوق، وقررنا أن نعد الطعام سويًّا، فكم هو شعور جميل أن تشعر أنك تستطيع الاعتماد على ذاتك في كل شيء دون الحاجة إلى أحد، ربما الانشغال في الطبيخ أهدأ منة قليلًا، ولكنها ما زالت مرهقة ذهنيًّا بشكل ملحوظ.

جاء إلينا عم عبده بوجهه المشرق ومعه بطيخة، سعدت كثيرًا لرؤيتها، ربما لأنها تعيد لي ذكريات الطفولة الجميلة، وربما لأنني أعشق تلك الفاكهة، وربما لأنها ترمز إلى الحظ، قطعتها بنفسي لأرى حمرتها المبهجة، يبدو أنها ستجلب لنا الحظ الحسن. تناولنا الغداء وأكلنا البطيخ، وأحسّ عم عبده بحزن ابنته الداخلي، فسألها: "ماذا بك يا بنيتي؟"

- لا شيء يا أبتي، أشعر ببعض الضيق فحسب.
- لا تقنطي يا بيتني من الحياة، فربما ما أخذته منك اليوم سيكون لعنة عليكِ غدًا، دعيها تأخذ ما تأخذ، وخذي منها ما تعطيكِ إياه، وكافحي من أجل ما تريدين، ولكن إياكِ والقنوط، ارضِ تنفتح أمامك كل الأبواب المغلقة.

كلمات عم عبده تثير الدهشة والحماس دائمًا داخلي، فكم أنا بحاجة إلى إحساس الرضا هذا، وهو أيضًا يتحدث كأنه يعلم كل شيء دون أن تقص عليه، كم أنا محظوظة أنني أعيش وسط تلك الأسرة الصغيرة المشرحة للصدر.

ردت عليه منة: "وماذا إن شعرت بأنني أقل من غيري؟"

- يا بنيتي، الله خلقنا جميعًا متساويين، وقسّم بيننا الأرزاق، هناك من أعطاه المال، وهناك من أعطاه الصحة، وهناك من أعطاه الحكمة، وهناك من أعطاه الرضا، الذي يشعرك بالسعادة، فاستمتعي بالرضا حتى تصلي إلى الحكمة.

دخلت في الحوار بينهما، وقلت: "لم أعد أشعر أن المال سر السعادة كما يظن بعض منا، أو يميّز أحدًا عن أحدٍ، فهو نقمة عندما تنتزع ينكشف جميعهم على حقيقته، فالمتستر بالمال عارٍ، أما قيمة الإنسان فتكمن في جوهره الذي لا يتغير مع وجود المال أو عدمه".

- عظيم يا بنيتي، سعيد أنك تتعلمين من الحياة وتستفيدين من تجاربها، فمهما كانت قاسية ستفيدك.

مكثنا سويًّا نحل الكلمات المتقاطعة، ربما تشغل منة عما يدور في خلدها، حتى غلبني النوم، وذهبت إلى السرير لأستريح من عناء اليوم

## ( ٨ )

أفقت على صوت هبوط الطائرة، فتحت عيني لأجدني على صدر زوجي الدافئ، أشعر براحة تامة، وكأنني أنام على أنعم وسادة في العالم، فكيف لوسادة أن تشعرني بهذا الكم من الطمأنينة والاحتواء؟! نظرت إليه وهو يلمس شعري ويطبع على جبيني قبلة تهدئ من روعي في أثناء هبوط الطائرة، لكنني لم أكن أنتبه إليها بقدر ما أركز في عالمه الذي يخطفني من كل شيء يدور حولي، فلا أنتبه سوى لوجوده معي فقط.

- لقد وصلنا يا حبيبة قلبي، استعدى للخروج من الطائرة، لقد أنرتِ مدينة النور.
- أنا مستعدة لفعل أي شيء طالما كنت معك.
- لن أخذلك يومًا يا حبيبتي، ستظلين كما أنتِ روحي وفؤادي وعقلي وابنتي وأمي وكل شيء لي، فأنا لا أشعر بالراحة أو السعادة إلا عندما أتضرع في محراب عينيك.
- وأنا لا أشعر أنني ما زلت على قيد الحياة سوى معك.

خرجنا من المطار، واستقللنا "تاكسي" إلى فندق قريب من قوس النصر، موقعه مميز يبرز جمال شوارع باريس، ويغلب عليه الهدوء، تنفست هواءه العليل الصافي لأملأ صدري بالراحة النفسية، قبل أن نذهب لتناول الغداء، ونتجول قليلًا في شوارع باريس المنظمة. شعرت بالفرحة والفخر معًا، وأنا أسير جوار زوجي، لم أكن أتوقع يومًا أن يرزقني الله بتلك الهدية الرائعة، رجل بمعنى الكلمة، يحتويني ويحبني ويغمرني بالأمان، يغمر فؤادي بالفرح وهو معي، أشعر دائمًا أنه يريد رؤية الابتسامة في عيني، يريد أن يحسّ ارتياحي، كل ذلك يصل إلى أعماق صدري فيجعلني أزداد حبًا له. اكتشفت أن وجوده معي يمدني بإحساس الوطن، لا يهم كثيرًا أين أنا طالما معه، أستشعر الأمان والراحة، لا أخشى أي شيء، فقط أريد أن أشعر أنني أصبحت جزءًا منه، لقد أصبحت مؤمنة بأنني خُلقت من ضلعه كما حواء، فكلما اقتربت أعود إلى موطني، وعندما أبتعد ينتابني شعور الاغتراب.

تجولنا في شارع الشانزليزيه الذي يعد أرقى وأفخم الشوارع السياحية في العالم، استمتعت بالأشجار المبهجة التي تزدهر على جانبي الطريق، تأملت الشوارع الجانبية المرسومة المتوازية، وكأنها لوحة فنية مبهجة، لننتهي برؤية قوس النصر حيث جذبتني فيه زخارفه البديعة، وروعة تصميمه، ثم زرنا المتحف الصغير، قبل أن نصعد إلى سطح القوس لنرى هذا المشهد البانورامي البديع لمدينة باريس من أعلى، ونتطلع إلى كل معالمها الخلابة، وعندما حلّ علينا الليل، شاهدنا إنارة الشموع حول قبر

الجندي المجهول، وقبل أن نغادر للعودة إلى الفندق، تناولنا العشاء في أحد المطاعم على جانب الشارع، ثم عدنا إلى الفندق لنستريح من عناء هذا اليوم.

*****

أيقظني صوت منة تنبهني لموعد العمل، وكالعادة ارتديت ملابسي، وتناولت الإفطار ثم ذهبنا سويًّا إلى المكتب، رأيت منة أكثر إشراقًا من أمس، يبدو أن هناك جديدًا قد حدث، أو أنها تمكنت من السيطرة على نفسها، سألتها: "طمئنيني عليك، أهناك جديد؟".

- لا، لم يحدث أي شيء مطلقًا.
- أشعر أنك في حالة أفضل كثيرًا.
- نعم؛ لأنني تحدثت إلى نفسي ليلة أمس، ووصلت إلى أن ما يحدث هو الخير، سأتركه يقرر بمفرده، وسأتقبل قراره أيًّا كان، فلن يفعل الله شيئًا يضرني.
- أحييك لثباتك، ولكن هل ستقدرين على فعل ذلك؟
- لا بد أن أفعل، فبعض الأمور لا يصلح معها سوى الصمت والانتظار، ليس بمنطق السلبية، ولكن بمنطق الاختبار.
- اختبار؟!

- نعم، اختبار مشاعره تجاهي وحقيقة شخصيته، فإن لم يحارب من أجلي الآن، فكيف سأحتمي به بعد ذلك، إذا فشل في هذا الاختبار سيسقط من نظري للأبد، ولن أقبل مثله زوجًا أو حتى حبيبًا.
- قرار يستحق التحية، وأشعر أنه لن يخذلك.
- لا أريد أن أتوقع شيئًا حتى لا أصاب بالصدمة.

وصلنا المكتب وافترقنا كلٌّ إلى مكتبه، أخبرني موظف الاستقبال أن هناك عميل طلبني بالاسم، ربما لم تسعني الأرض فرحًا، هل جاء الوقت الذي يبدأ الناس في معرفتي والسؤال عني؟ ولكن ليس بهذه السرعة، ربما يكون أحد أصدقائي في الجامعة أو معرفة أبي. لم يطل الوقت حتى وصلتني استمارة بيانات هذا العميل، إنه كريم يبلغ من العمر ٣٠ عامًا ومتزوج، دخل ويبدو على وجهه الامتعاض والتذمر وكأنه جاء رُغمًا عنه، فرحبت به في محاولة لتخفيف تلك الحالة عنه.

- عزيزي، مرحبًا بك أولًا في مكتبي، لكني أشعر أنك غير راغب في التواجد هنا على الرغم من أنك طلبتني بالاسم، فإن رغبت في التراجع أو اللجوء إلى معالج آخر ليس هناك أيَّة مشكلة، أهم شيء لدينا راحتك.
- لا أبدًا، أنا بالفعل طلبتك بالاسم؛ لأنك تعرفين مشكلتي.
- أعرف مشكلتك؟!
- نعم، أنا زوج منار صاحبة مشكلة الإنجاب.

- بالطبع أتذكرها جيدًا، ماذا حدث؟
- لقد حدثت مشادة شرسة بيننا ليلة أمس، وانتهت إلى أنها جمعت ملابسها وتركت لي المنزل.
- لماذا كل هذا؟ ألم تتفقا؟
- لقد رمتني بعديد من الاتهامات الموجعة، وأشعرتني بالعجز والتقصير، ما جعلني أنفعل عليها وأوصلنا إلى ما حدث.
- اشرح لي ما حدث؟
- انتظرتني أمس حتى عودتي من العمل، كانت تجلس متربصة بي، متأهبة للهجوم عليّ، حاولت المزاح معها لكنها لم تتقبل أي شيء، فقط طلبت أن أتركها تتحدث عما بداخلها، أخبرتني كم كنت ظالمًا لها وقاسيًا عليها، بسبب عدم رغبتي في العلاج، وأنني تركتها في مهب سخط أمي عليها وتجريحها، أخبرتني كم كنت باردًا معها وأتجاهل مشاعرها.
- وماذا كان ردك؟
- هجومها الشديد عليّ ورفضها للدفاع عن نفسي دفعني للعصبية، وعندما اشتدت حدة الكلام بيننا طلبت مني أن أحتكم إليكِ، بعد أن أخبرتني أنها جاءت هنا وقصت عليك كل شيء، ثم طلبت مني أن أفكر جيدًا قبل أن أتخذ قراري، وأنها ستذهب إلى منزل والدها

حتى لا تشكل ضغطًا عليّ، قلت لها إنني لن أذهب لأي مكان، وإنها حرة.

- حسنًا، وما الذي غيّر رأيك؟
- عندما جلست مفردي، واستعدت شريط ذكرياتنا معًا، أنا أحبها حقًّا، ولا أريد من الدنيا سواها، نعم كنت أتجاهل كلمات أمي لها حتى لا تحدث أيَّة مشكلات، ولكني لم أكن أتصور أن ذلك يؤذيها لهذه الدرجة.
- ضع نفسك مكانها، أتقبل أن يقلل أحد من شأنك أو يشعرك بالعجز لشيء خارج عن إرادتك؟
- بالطبع لا.
- وعندما عرفت أن العيب فيك وليس فيها، لماذا التزمت الصمت أمام تجريح والدتك؟
- لأنني لا أفكر في موضوع الإنجاب الآن، ولا أرى ضرورة لأن أتلقى علاجًا لأجلها.
- وهل فكرت في رغبتها هي؟
- لا أشعر أنها بحاجة إلى ذلك.
- هذا شعورك أنت، ولكن من حقها أن تشعر بغير ذلك، من حقها أن تنجب، ومن حقها ألا يتطاول أحد عليها، أو يشكك في مقدرتها، وأن تجد معها رجلًا يحميها ويدافع عنها، وليس يتجنب المشكلات

ويتركها تتأذى وتنجرح دون أن يأبه بها، أو يشعر بما يدور في خلدها.

- أنا لم أفعل ذلك.
- وماذا فعلت وأنت ترى والدتك تهينها وتجرحها؟ ماذا فعلت وأنت تمنع عنها حقًّا أصيلًا لها؟ ماذا فعلت وأنت تختار وحدك في قرار مشترك بينكما؟
- وماذا عليّ أن أفعل؟
- أن تختار إما العلاج أو تركها تختار بينك وبين الانفصال، لربما عندها مسألة الأمومة أهم، فلتدعها وشأنها تختار شخصًا آخر، أو أن تتفقا على هذا مع كفالة حماية كاملة لها.
- كيف تختار شخصًا آخر؟! لا أتحمل ذلك.
- ولماذا تطلب منها هي التحمل؟
- سأفعل لها ما تشاء، أنا لا أستطيع تخيل العيش دونها أو أن تكون لغيري.
- هل أنت مقتنع بما تقول؟
- نعم، سأذهب إليها وأصالحها.
- عليك أولًا أن تخبر والدتك بالحقيقة، وتطلب منها ألا تضايقها ثانية، ثم تتفق معها سواء على الإنجاب أو لا، ولكن يجب أن يكون قرارًا مشتركًا بينكما.

- سأفعل ذلك.
- أرجو أن تتقبل اعتذاري إن احتددت معك في الحديث، ولكن كل ما أريده هو استقرار حياتكما معًا.
- أشكرك على تنبيهي لكل ذلك.
- سأنتظر منكما مكالمة تخبراني أن حياتكما قد استقرت في سعادة وراحة.
- بإذن الله.

ودّعته إلى باب المكتب، ثم عدت إلى مكتبي وتنفست الصُعَداء، دخلت منة وقصصت عليها ما حدث، وأبلغتني بسعادتها بي، وأن الدكتور مراد سيفرح بي كثيرًا عندما يقرأ التقرير الخاص بي. أود أن ألتقي بهذا الشخص الذي يتحدث جميعهم عنه، وأحدد مصيري في المكتب، ولكني أشعر أنني قد ثبت نفسي فيه.

عدنا إلى المنزل سيرًا، وحدثتني منة عن حالة جديدة جاءت إليها اليوم، وشعرت أنها رسالة من الله، فهي لرجل من أسرة ثرية، أحب فتاة فقيرة، ولكن أهله رفضوا وأصروا على أن يتزوج جارته، واستجاب بعد ضغوط نفسية شديدة من والدته التي اشتد عليها المرض، وبالفعل تزوجها، ولكنه لم يستطع أن يشعر بها، ولم يقدر على العودة إلى حبيبته بعد ما فعله معها، فبدأ يبحث عنها في كل النساء حتى أصبح خائنًا.

- هذا المتوقع، ولا أعلم لماذا يفعل ذلك الأمهات بأبنائهن دون أن يدرين أنهن بذلك يدمرن حياتهم ومستقبلهم.
- حقًّا، أنا لا أحترم هذا الرجل الذي يتزوج رغمًا عنه، فأنا كبنت أرفض ذلك فكيف لرجل أن يقبل؟!
- في هذا الزمن أصبح كثيرًا من الشباب لا يعرفون معنى الرجولة، لا يستطيعون أن يتخذوا قرارًا أو موقفًا حاسمًا، لقد أصبحوا أكثر هشاشة من البنات، فهم يتركون زمام أمورهم في أيدي أمهاتهم، أنا لا أنكر فضل الأم، ولا فرض الطاعة، ولكن لا بد أن يربين أبناءهن على أن يكونوا رجالًا يعتمدون على أنفسهم، أظن أن المشكلة أصبحت في التربية، لم يعد كثيرٌ منهم يهتم بتلك القيم والأخلاق التي كانت متأصلة في المجتمع، الآن نراها في الكتب فقط، وإذا رأيناها بالصدفة في الواقع نقف مندهشين لنرفع لها القبعة.
- الأمهات أصبن بداء الأنانية، وحب الامتلاك، وكأنهن يستحوذن على أبنائهن ويسيطرن عليهن، فأصبحن لا يفكرن في سعادة أبنائهن بقدر ما يرغبن في التحكم بهم، دون دراية أنهن بذلك يدمرن شخصياتهم.
- لقد بات المجتمع في حاجة إلى إصلاح نفسي شامل، فلن نتقدم سوى بإصلاح الذات وحب غيرنا والإحساس بالآخرين، فلن

نسمو سوى بتطهير الذات ومواجهة مساوئها، كفانا دفن رءوسنا في الرمال، فلينظر كل منا إلى نفسه قبل أن يتأمل مساوئ غيره.

- أخشى أن يكون إسلام مثله.
- لقد قلتِ إنك ستتقبلين القرار أيًّا كان، عامة إن فعل ذلك سيجني على مستقبله وحياته، أنا رأيي تحويل تلك المشكلة إلى مكتبه لعله يتعظ.
- بالتأكيد سيعرف المشكلة، لأن المكتب يناقش جميع الحالات التي تأتي إلينا في الاجتماعات الدورية، عندما يعود الدكتور مراد بالتأكيد ستحضرين معنا، ولكني أريد أن يتخذ قراره بمفرده دون أي ضغط، وإن استجاب لضغوط عائلته، سيثبت بذلك أنه ضعيف الشخصية عكس ما كنت أتوقع.
- ستعرفين حقيقته، وإذا فعل سيعيش بقية حياته بلا روح، ربما سيرضي والديه أيام الخطبة وعقد القِران، ولكنه سيعيش قانطًا بقية حياته، فعندما غدر بي فادي لم أكن أتوقع ما فعله مطلقًا، لأنه لم يكن خطيبي فحسب، وإنما كان عشرة عمر، عرفته منذ فتحت عيني على الحياة، عشت معه عمْرًا بأكمله دون أن أعرفه على حقيقته، فقط الأزمة هي التي تكشف معادن البشر.
- أتمنى أن يستفيق قبل فوات الأوان، ربما اتخذت قرارًا حاسمًا، ولكن قلبي لا يزال يتمنى ألا يكون قد أخطأ الاختيار.

- أشعر أنه سيعود إليك.
- فليكن ما يكون.

وصلنا إلى المنزل وأعددت الغداء بمفردي، وكنت في غاية سعادتي، وأنا أعتمد على نفسي لخدمة نفسي وغيري، كم هو رائع أن تكون سببًا في راحة أحدهم، أعدت أطباق "كريم الكراميل" لعلها تحسّن نفسية منة التي ما زالت متذبذبة، حاولت إشغالها بحل الكلمات المتقاطعة، التي تنشط الذاكرة وتوسّع الثقافة، وتشغل الذهن، ثم تناولنا العشاء قبل أن أذهب إلى السرير لأستعد للنوم، في الحقيقة أنا لم أرغب في النوم بقدر ما أشتاق إلى حياتي الثانية، أريد أن أرتمي في حضن زوجي، وأهرب بعيدًا عن ضوضاء الحياة ومشكلاتها، أريد أن أختبئ من الضجيج الذي يزعج ذهني ما بين التفكير في إسلام وفادي ومشكلة منار، والمشكلة التي حدثتني عنها منة، فكرت كثيرًا في هذا الشخص الذي ضحى بحبيبته، وكيف أنه ألقى نفسه بنفسه في نار جهنم، ولم يعد يستطيع الخروج منها، عجبًا لهؤلاء البشر يدمرون حياتهم بإرادتهم، ثم يجلسون يبكون على حظهم وكأنهم لم يقترفوا إثمًا. كفاك يا ذهني انشغالًا وتشتتًا، دعني أذهب إلى حياتي الهادئة المريحة، مع زوجي الحاني الحنون.

لقد تيقنت الآن أنه حلمٌ، لأن مثله لم يعد موجودًا في الواقع، فقد أصبح البشر كالذئاب يبيحون لأنفسهم كل الحيل من أجل افتراس أهدافهم، وأصبح من يلقبون بالرجال كالنعام يتباهون بمظهرهم ولا ينظرون إلى جوهرهم الهش. عليّ أن أغمض عينيَّ لأذهب إلى الجنة، وألتقط أنفاسي هادئة مستقرة، وأصفي ذهني، وأنعش قلبي بحبيبي.

## ( ٩ )

استنشقت رائحة هواء باريس العطرة، وشعرت بضوءها الساحر، الذي يشع الحماس في النفوس، كانت الشمس ساطعة تداعب وجهي الذي أحسسته مشرقًا، الجو هنا أكثر بهجة والشمس أقل حرارة، والطاقة الإيجابية تحيط بي من كل مكان، لا أعلم ألأني في مدينة النور أم لأني جوار نور فؤادي وربيع عمري. انتبهت إلى زوجي الذي رأيته يتمعن النظر إليّ وكأنني لوحة فنية بديعة، إنني لم أحب نفسي قبل أن أرى صورتي تلك في عينيه، يشعرني أنني ملكة متوجة على عرش قلبه، لم أحس بقيمتي من قبل، هو فقط من يجعلني أعتز بشخصيتي، ويحمسها للتقدم، فقد علمني كيف تكون الحياة التي لم أعشها من قبل. هذا الرجل الوحيد الذي تمكن من السيطرة على ذاتي، فقد مَلَأت روحه كياني، وأدخلت مشاعره الفرحة على فؤادي، وأجبر فكرُه الراسخ عقلي على الانحناء أمامه، وانصاعت جوارحي له.

تحسس وجهي بأنامله، وهمس إليّ: "أزعجتك حبيبتي؟"

- لا مطلقًا، لقد نمت طويلًا حتى اشتقت إلى نظرات عينيك البرّاقة تلك.

- عيناي برّاقة؛ لأنها تعكس شعاع نور عينيك المشرّق، لقد ظللت أنظر إليك ساعة كاملة دون أن أكلَّ أو أملَّ، تفاصيل ملامحك تجذبني كأنني أول مرة أنظر إليها، لا يزال لديك مزيدٌ من الجمال الذي لم أره من قبل، ولا يزال لدي مزيٌد من الحب الذي تستحقينه.
- تذيبني كلماتك الرقيقة تلك، تفقدني توازني، تعيقني عن التفكير، فقط تدفعني إلى الصمت، فكما يقولون الصمت في حرم الجمال جمال، وأنت أجمل ما رأت عيني، وصوتك أعذب ما سمع قلبي.
- لا أريد أن أعيق تفكيرك، بالعكس أريدك دائمًا في كامل قواكِ العقلية؛ لأنها دائمًا تفيدني، فكم لجأت إليكِ في مشكلات وتمكنتِ من حلها، أريدك يا حبيبتي دومًا الأفضل، ستظلين ملاذي عندما تضيق عليّ دنياي، وعقلي عندما يتشتت ذهني، وجوارحي عندما يصيبني الإرهاق، وفؤادي دائمًا وأبدًا.
- أتعلم أنني كثيرًا ما أسأل نفسي هل أنت حقيقي؟

رد ضاحكًا: أتظنين أنني خيال أم عِفريت من الجن؟!

- لا لستَ عفريتًا بل حلمًا جميلًا أعيشه، ولا أريد أن أصحو منه.
- بل أنتِ أجمل واقع في حياتي، وهبك الله لي لتعوضيني عن كل ما واجهني من مصاعب، وتدفعينني دائمًا للمزيد من النجاح، فأنتِ قِبلتي ومحرابي.

- تسحرني بكلماتك، وتغمرني بحبك الجارف، وأنا لا أريد سوى وجودك معي.

تناولنا الفطور في الحجرة، ثم ذهبنا إلى حمام السباحة، وتجولنا في الطرقات، وقضينا يومًا ممتعًا حتى اجتذبني النوم.

*****

استيقظت كعادتي على صوت منة تحمسني لأنهض مسرعة حتى لا نتأخر على العمل، ومرت الأيام على هذا النحو فلا جديد سوى أنني تمكنت من إعداد جميع الوجبات بمفردي، وتبادلت الأدوار مع منة، ففي يوم أصنع أنا الغداء وفي يوم هي، وهكذا في الفطار والعشاء، وظل عم عبده كما هو ينزل إلى عمله ثم يجلس معنا يوميًّا نتسامر، ويعطينا نفحات من الأمل.

أما في حياتي الأخرى، فقضينا أيامًا مبهجة في تلك العاصمة المضيئة، جميعها حب ومرح وسعادة، وبين يوم وآخر كنا نطمئن على ابنتنا وقطتنا عبر المحادثة المصورة "فيديو كونفرانس"، وكنا نشعر ببهجتهم عندما يرون السعادة تنبعث من أعيننا، حتى جاء اليوم قبل الأخير في إجازتنا، كان يومًا مرهقًا حقًّا؛ لأننا خرجنا للتسوق وشراء الهدايا لابنتي وقطتي، وشراء الملابس لنا، ثم إعداد الحقيبة، فتناولت العشاء ثم أسرعت إلى الفراش لأرتمي في حضن زوجي قبل أن يخطفني النوم.

*****

استفقت في منزل عم عبده وذهبنا كعادتنا إلى المكتب فوجدنا الحركة غير طبيعية، يغلب عليها الارتباك، يشنون حملات نظافة وتزيين، فسألت عن سبب كل ذلك، أخبروني أن الدكتور مراد سيأتي غدًا من باريس إلى هنا. أخيرًا، سأرى هذا الرجل المعروف الذي يأتي إليه العملاء من مختلف الفئات والأماكن، وهم يشيدون به وبسيرته العطرة، ربما وددت أن أقابله لأنني أتمنى أن أكون مثله ذات يوم، كان سيتحقق حلمي إذا ظل معي أبي وأسس لي مكتبًا، ولكني لم أكن لأستطيع أن أجلب هؤلاء العملاء إليّ، وغالبًا كنت سأفشل فشلًا ذريعًا، الوضع الحالي أفضل كثيرًا، فحقًّا قضاء الله كله خير، فاليوم يبدأ الناس في معرفتي من خلال مكتب هذا الرجل الذي يأتون لاسمه، وغدًا سأحقق شهرته وربما سأنافسه أيضًا.

دخلت إلى مكتبي، واحتسيت قدحًا من القهوة، قبل أن تصلني استمارة جديدة من هايدي تبلغ من العمر ٣٥ عامًا متزوجة ولديها ثلاثة أبناء، دخلت المكتب رأيتها امرأة جميلة، جذبتني عيناها الملونة التي يبدو عليهما الحزن العميق، وجدت نظراتها مرتبكة، وكأنها تهرب من أشخاص يتتبعونها، طلبت لها عصير ليمون حتى تهدأ.

- مرحبًا بك عزيزتي في مكتبي المتواضع.
- أهلًا بك.
- هل يمكنني أن أطلب منك طلبًا؟
- ماذا؟

- أريد أن تتعاملي على أنك في بيتك، وتحدثي إليّ كأنك تتحدثين إلى نفسك، فلا أحد سيعلم ما يدور هنا، أريد منك أن تطمئني.
- لقد جئت لثقتي بالدكتور مراد، وشكر أصدقائي له، أعرف أنه أكبر مكتب استشارات أسرية، وأهم ما يميزه احترام الخصوصية، فأنا لست قلقة مطلقًا من ذلك، ولكن وضعي يشعرني دائمًا بالخوف والارتجاف.
- أي وضع؟
- أنا متزوجة منذ ١٤ عامًا، عرفت زوجي بشكل تقليدي وكنت قد تخرجت قبلها بشهور بسيطة، انبهرت به، ووافقت عليه، وعندما تقربت منه أحببته بالفعل، فهو إنسان محترم وطيب القلب، ويحاول تلبية جميع طلباتي، ولكني سرعان ما حملت وأنجبت أول أولادي، ثم أنجبت الاثنين الآخرين خلال أول خمس سنوات زواج، فتزايدت أعباؤنا.
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- بدأت المشكلات تتزايد بيننا، فالظروف المالية وضعتنا تحت ضغوط رهيبة، وأبناؤنا يكبرون ويحتاجون مصروفات عديدة، وبدأ يشعر أنني سبب كل تلك الضغوط وكأنني أنجبتهم بمفردي.
- ولكن ليس هذا ذنبك وحدك، ألم تتفقا على الإنجاب معًا؟

- نعم، اتفقنا سويًّا وليس رغمًا عنه، على العكس لقد كان يرغب في الإنجاب سريعًا، وتكوين عزوة كما كان يقول، ودفعني إلى أن أرغب في ذلك معه دون أن أفكر في احتياجاتهم أو ظروف الحياة.
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- وصلنا إلى أن الحل الوحيد هو السفر للخارج حتى نستطيع تلبية مطالب الحياة، وضمان مستقبل أولادنا، وبالفعل جاءته فرصة عمل إلى الكويت منذ ست سنوات، ويأتي إلينا ثلاثة أشهر فقط في العام، تعودت على تحمل مسئولية الأبناء كاملة، وهو يحاول أن يلبي جميع طلباتهم ليعوضهم عن غيابه.
- هل تشعرين أن أبناءه في حاجة إليه كأب؟
- بالطبع، وجود الأب مهم للغاية مع أبنائه، خاصة في مرحلة التنشئة، فأكبر أبنائنا يقبل على مرحلة المراهقة ويحتاج أبًا، وأنا أحاول أن أؤدي دوره، ولكن في النهاية أنا امرأة ولست رجلًا، ولكن ليست تلك المشكلة التي تقلقني الآن.
- أخبريني ما الذي يقلقك؟
- لقد اعتدت غيابه عامًا بعد عام، ولكن كان ينتابني لحظات اشتياق إلى أنوثتي، لقد كنت أمارس دور الأم والأب معًا، حتى شعرت أنني رجل ونسيت كوني امرأة، مرت سنوات وأنا على هذا الوضع، حتى بدأت أندمج في مواقع التواصل الاجتماعي، وشاركت في

مجموعات تعارف، وبدأت أتعرف إلى شباب، ليلبوا لي رغبتي العاطفية، وددت أن أشعر بأنوثتي وبعدها اعتد الأمر، لكني لم أقصد الخيانة ولم يتطور الأمر أكثر من ذلك، إنني أحتقر نفسي لأنني أفعل ذلك، ولكني لا أعرف ماذا أفعل.

- منذ متى وأنتِ تفعلين ذلك؟
- منذ ما يقرب من عام.
- ولماذا تشعرين الآن بكل هذا الندم؟
- كنت أتحدث كتابة مع أحدهم على هاتفي المحمول، ونسيت إغلاقه ونهضت لأتابع الأكل الذي كنت أطهيه، فوقع في يد ابني الصغير، لا أعرف أتمكن من قراءة ما به أم لا، إنه يبلغ من العمر سبع سنوات، ولكني شعرت بالخزي والعار وكأن ملابسي قد نزعت عني.
- وماذا كان رد فعل ابنك؟
- لقد شعر بارتجافي، وأشعر أنه قرأ شيئًا ما جعله ينظر إليّ بارتياب، لم يمض على هذا كثيرًا فقد أسرعت للمجيء هنا حتى أشفى من هذا الإدمان المدمر.
- ماذا كان يظهر في الرسائل عندما مسك ابنك الهاتف؟
- كان أحدهم يقول لي لقد اشتقت إليك، ولكني كنت قد حذفت جميع المحادثة قبل أن أقوم، فلم ير سوى تلك الكلمة.

- حسنًا، دعيني أسألك أترغبين حقًّا في الابتعاد عن هذا؛ لأنك مقتنعة بذلك أم مجرد إحساس بتأنيب الضمير؟
- أخشى أن يكرهني ابني أو يظن بي سوءًا، أشعر أنني كنت مغيبة طوال هذا العام، لقد أفقت عندما وجدت الهاتف في يد ابني قبل أن أرى ما الرسالة الواردة، ولكن تخيلت أنه رأى كل شيء، وأن أمري قد انفضح أمام جميع الناس، فجأة شعرت ببرودة لم أشعر بها من قبل تخيلت أحداثًا مرعبة، جعلتني أتيقن أن هذا الوضع لا بد أن ينتهي وللأبد.
- حسنًا سأساعدك بالطبع، أولًا عليك أن تهدئي من روعك، نعم أنتِ أخطأتِ، ولكن لا أحد بلا خطيئة، الأهم أنك عرفتِ خطأك وتريدين علاجه، وطالما اتخذتِ القرار ستستطيعين التنفيذ مهما كانت العوائق.
- ماذا أفعل مع ابني أولًا؟
- أظن أن الأمر لم يصله كما تظنين، ولكنه بحاجة إلى طمأنة، لا بد أن تتحدثي معه وتفهمي منه كيف فسّر ما رآه، وتوضحي له أنها مجرد معاكسة من شخص لا تعرفينه، وابدئي فورًا بتطهير حسابك الشخصي من جميع هؤلاء الأشخاص، وغادري تلك المجموعات التي تجرفك نحو هذا الطريق.
- كيف أفتح معه الموضوع؟ وهل سيصدقني؟

- قولي له إنك تشعرين أنه قد تغير معك، واسأليه عن سبب ذلك، وهل هو حزين منك لأمر ما، لا تحدثيه مباشرة عن الموضوع، دعيه يخرج ما بداخله دون أن يشعر أنك تخشين أمرًا محددًا.
- وهل سيمكنني التخلص من تلك العادة؟
- لا بد أن نتخلص من الأسباب نهائيًّا، تحدثي مع زوجك أولًا أنك تريدنه معك، وأن الأولاد يحتاجون إليه كأب وليس إلى أموال، ذكّريه أن ابنه الأكبر دخل مرحلة المراهقة ولا بد من تواجده معك حتى تكتمل شخصيته بشكل سوي، والأب له دور كبير في حياة ابنه في تلك المرحلة، ما سيحركه أكثر مصلحة أولاده، أشعريه بالخطر عليهم، وأبلغيه أنك أيضًا تحتاجين إليه.
- ولكنه يشغل منصبًا جيدًا هناك، ويدّر علينا كثيرًا من الأموال.
- أموال؟! أترين أنها أهم من نفسية أبنائك؟ أهم من نظرتهم إليكِ إذا انكشف الأمر؟ أهم من شعورك بالخيانة تجاه زوجك؟ أنتِ تتحدثين إليّ عن شعورك العميق بالذنب على ما اقترفتيه، ولا بد من علاج الأمر من جذوره وإلا سنخادع أنفسنا، لو كنتِ تحبين شخصًا آخر كنت عرضت عليك الطلاق والزواج منه، أما وضعك ليس كذلك، فأنتِ تعوضين شعورك بالنقص في شيء ما، ولا بد أن تعود الأمور طبيعية حتى تشفي تمامًا.
- كلام منطقي، ولكن أتمنى أن أستطيع تنفيذه.

- ستستطيعين.
- أشكرك على سعة صدرك وعلى تفهمك أمري.
- لم أفعل سوى واجبي، ونحن جميعًا بشر؛ لا ينبغي لنا أن نجلد ذواتنا بل نعالجها، وأنتِ إنسانة نقية، لذلك شعرتِ بهذا الذنب الذي اقترفتيه، وأظن ما حدث كانت رسالة من الله حتى تعودي من هذا الطريق.
- أشكرك كثيرًا لقد تغلبت على خوفي واتضحت لدي الأمور، وسأسعى لفعل مقترحاتك.
- سأنتظر مكالمة منك أن كل شيء أصبح على ما يرام، والمكتب مفتوح إليكِ في أي وقت.

ودعتها إلى باب المكتب، وعُدت لأجهز حقيبتي لأغادر مع منة كعادتنا كل يوم، وأكملنا اليوم كالمعتاد ثم سلمت نفسي إلى النوم.

## ( ١٠ )

أفقت على فراش الفندق في باريس، انجذبت إلى الشمس المشرقة، قبل أن تأخذني عيناي إلى وجه زوجي النائم كطفل بريء لم تترك عليه الدنيا بصماتها القاسية، أريد أن أعرف قصة حياته، وكيف وصل لهذا الوضع المالي وهذا الاتزان النفسي وتلك الطاقة العاطفية المشعّة. التفت حولي لأتعجب مني، فكيف أنا في غربة دون أن أشعر؟! عادت عيناي إليه تحدثه: وجودك يشعرني بالألفة، حتى وإن كنت غريبة عن المكان وعن المحيطين بي، فروحك تقويني وتمنحني طاقة تقبل كل شيء، لم يعد هناك أمرٌ يهزّ كياني، قلت لك من قبل إنك وطني، واليوم أقول لك إنك أصبحت بالنسبة لي أيضًا جميع البشر. أنا هنا في البلد الغريب لا أشعر بالغربة، وكم كنت أتشبث بوطني سابقًا، وأرتعد خوفًا إن سافرت يومين بعيدًا عنه، لا أنكر أن قلبي لا يزال يتعلق به، ولكنك تسلب كل كياني، والآن سننهض لنعود، وأنا لا أشعر مطلقًا بالشوق، فكيف أشتاق لشيء وأنت العالم بأكمله معي؟!

لقد افتقدته كثيرًا، لمست وجهه بأناملي، وتحسسته قليلًا قبل أن تنفتح عيناه ليبدأ صباحي المشرق، تبسم إليّ وقال: "صباح الحب يا روحي".

- صباحك سعادة يا حبيبي.
- كم الساعة الآن؟
- إنها التاسعة.
- حسنًا، علينا أن ننهض لنفطر قبل أن نغادر إلى المطار، عذرًا يا حبيبتي كنت أتمنى أن نقضي وقتًا أطول، ولكن لا بد أن نعود لعملنا، وإن شئت ترتاحين قليلًا قبل العودة للمكتب.
- لست بحاجة إلى أعذار، فما يهمني أن أكون معك، لا يعنيني المكان أو الزمان كثيرًا، يكفيني أن أظل في كنفك.

تبسم راضيًا، وطبع على جبيني قبلة قبل أن ينهض من الفراش ويذهب ليتحمم ويرتدي ملابس السفر، وهكذا فعلت أيضًا، وتناولنا الإفطار ثم توجهنا إلى المطار، للعودة إلى أرض الوطن، مرت الأيام سريعًا، فها نحن نستعد للرحيل ونودّع المدينة المشرقة ومعالمها الساحرة، ونصطحب بسمتنا معنا لأن مصدر سعادتي لا يزال معي.

عدنا إلى بيتنا الدافئ؛ لأجده خاويًا على عرشه، منطفئ الأنوار، تعجبت كثيرًا؛ لأننا لا نزال وضح النهار، فأين ذهبوا جميعهم؟ وماذا حدث لهم؟ ففوجئت بضوء شموع يقترب منا قبل أن تظهر جودي مع الفتاة التي ترعاها برفقة بوسي، يحتفلون بعودتنا في جو من البهجة الممتزجة بالعاطفة، أسرعت إلى احتضان ابنتي الجميلة الرقيقة التي لم أتوقع أن تدبر كل ذلك من أجل إسعادي، كيف لا أتذكر تلك الفتاة بكل ما تحمله تجاهي من حب،

أحسست بشيء من الضيق لأنني لا أذكر ابنتي الوحيدة، أريد أن أعرف عنها كل شيء، ولكن كيف؟ لا يمكنني أن أسأل، عليّ أن أصبر وأتلقى المعلومات تدريجيًّا حتى لا أجرح مشاعرها الرقيقة دون أن أدرى. تنبهت إلى لمسات بوسي وتسلقها على رجلي لتحضنني بعنفوان أشعرني بمدى اشتياقها لي، إنني أرتاح لحضن هذا الكائن اللطيف، وأحبها كثيرًا، في الحقيقة لقد تعلق فؤادي بتلك الأسرة الصغيرة بشدة، هل يمكن أن يحبني الله لهذا الحد حتى يهديني كل تلك المحبة في بيت واحد.

جلسنا لتناول الغداء على مائدة واحدة مفروشة بالود والأمل، كنت أتذوق الطعام وكأن له طعم لم أعرفه من قبل، إنه طعم الحب الذي يفرض نفسه على كل شيء، لا يمكن أن يكون ذلك واقعًا، بالتأكيد أنا في حلم جميل أخشى أن أصحو منه، لقد اعتدت عليه وتعودت على تلك الحياة الصافية. وفور انتهائنا من الطعام، اصطحبتني ابنتي إلى غرفتها لأشاركها في موهبتها، وجدت على منضدتها لوحة فنية رائعة، تضمّني أنا وزوجي مع باقة زهور أحملها وأنا أرتدي فستان الزفاف، وتتوسطنا جودي، وقطتنا الجميلة بوسي، نظرت إليها بتعجب: "ما هذا يا حبيبتي؟"

- رسمتك أنتِ وأبي يوم الزفاف؛ لأنني أراه أجمل يوم في حياتي.
- كيف في حياتك ولم تكوني موجودة وقتها؟!

- إنه أجمل يوم عندي؛ لأنه سبب وجودي، وسر سعادتي، لا تعرفين يا أمي كم أحبك أنتِ وأبي، أشعر بالدفء وأنتما جواري، عندما كنتِ مريضة كنت في أشد حزني وألمي.
- ولماذا أنتِ وبوسي في الفرح؟!
- كنت أتمنى أن أحضر هذا اليوم، ففعلت على الورق، أما بوسي فأشعر أنها صديقتي وأختي، هذه أسرتنا لا يجب أن تتفرق أبدًا.
- أسعدك الله دائمًا يا بنيتي.

ظللت أتعرف إلى شخصيتها الناضجة، ومواهبها، وألعابها، وقضينا وقتًا في الحديث عن كل شيء يخصها، حتى فوجئت أن الوقت قد تأخر دون أن أشعر به، وأنا برفقة تلك الفتاة الجميلة والقطة المرحة، فنمت جوارها حتى دخلت في سبات عميق، ثم تركتها لأذهب إلى زوجي الذي اشتقت إليه في تلك الساعات. فدخلت إلى غرفة نومي، وجدت زوجي يتحدث في الهاتف، يبدو أنها مكالمة عمل، انتظرت لينتهي، وسألته: "هل هناك جديد في المكتب؟"

- لا، كنت أطّلع على آخر مستجدات المكتب، والحالات التي وردت إلينا، لأكون على دراية بكل ما حدث فترة غيابي قبل أن أذهب غدًا.
- ستعود غدًا إلى العمل؟
- نعم.

- أريد أن أعود معك.
- حسنًا يا حبيبتي لنذهب سويًّا.

ضمني زوجي إليه ليغمرني بالأمان والدفء حتى سافرت إلى نوم عميق.

*****

سمعت صوت منة من بعيد يناديني: "هيا استيقظي، لقد عاد الدكتور مراد من باريس وسيأتي إلى المكتب اليوم"، فتحت عيني لأرى منة تستكمل: "عليكِ أن تستعدي جيدًا، فاللقاء الأول يدوم".

- سأنهض حالًا.

ذهبت منة وشردت فيما قالته منذ قليل، كيف عاد الدكتور مراد من باريس كما عدت أنا وزوجي؟ هل هذه مجرد صدفة؟ ولماذا الآن تحديدًا؟ كيف لم أنتبه لذلك مسبقًا؟ إنه شيء مروع، عليّ أن أنهض لأرى هذا الرجل، ويجب أن أكون حسنة المظهر كما قالت منة لأنه أول لقاء.

تناولنا الإفطار وذهبنا إلى المكتب، وأخبرنا موظفو الاستقبال أن الدكتور مراد ينتظرنا في غرفة الاجتماعات، لا أعلم لماذا شعرت بتلك الرهبة الداخلية من هذا اللقاء؟ ربما لأنه اللقاء الأول، وربما لأنني قد انتظر هذا اليوم، وربما لأنه سيحدد مصيري في المكتب، ولكن كل المؤشرات تطمئنني أنني سأستمر. دخلت مع منة غرفة الاجتماعات وقلبي ينتفض من

شدة النبض، رأيته من بعيد، فدققت النظر نحوه، وبمجرد وقوع نظري عليه جُنّ عقلي، وانقلب كياني، وتوقفت حياتي للحظة أحسستني بالدوار، يا الله! من هذا؟! لا يمكن أن يكون هذا الرجل هو ذاك، أغمضت عيني لأستعيد ذاتي، ثم أعدت النظر إليه، لا يمكنني أن أصدق ما يدور في ذهني، أيعقل ذلك؟! نظرت حولي لأتأكد أنني في المكتب ولست في المنام، شعرت بيد تدفعني للأمام إنها منة: "هيا لأعرفك إليه قبل الاجتماع"، تركتها تسير بي حتى أوصلتني إليه، مد يده إليّ بالسلام بعد أن حيّا منة، مددت يدي إليه وهي ترتعش لا أستطيع تمالكها، لا أدرى ماذا يحدث لي، أقف متصلبة الوجه، محدقة العينين، مرتعشة الحركة، "أهلًا بكِ عزيزتي بيري". هكذا سمعت منه وهو حاد النظرة، جاد الهيئة، ما يدعو للدهشة حقًّا، أهذا هو زوجي الحنون اللطيف الذي يدللني مساء كل يوم؟! كيف ذلك؟ إنه رجل حقيقي، ولكن يعاملني كما الأغراب، فهو لا يعرفني، كيف لا يعرفني وهو يأتيني كل يوم في المنام؟ أم أنني الآن أحلم وهو واقعي، لم أعد أفهم شيئًا، لكن ما أعرفه جيدًا أنني لن أقدر على معاملته لي كالغرباء. "أهلًا بك عزيزتي بيري". أعادها ثانية على أذني، حاولت استجماع قوتي لأرد: "أهلًا بك يا دكتور، معذرة، لقد ارتبكت لهيبتك، فكم تمنيت هذا اللقاء".

- أشكرك عزيزتي، لست سوى أخ أكبر لك ولجميع زملائنا، لقد سمعت كلمات ثناء عليك تنبئ بميلاد استشارية أسرية عظيمة، ويسعدني أن تنضمي بشكل رسمي لعائلتنا الصغيرة.

- أيَّة عائلة؟
- أخواتك في هذا المكتب المتواضع، فجميعنا أسرة واحدة، فلا يمكن أن نحاول حل مشكلات غيرنا ونحن لا تربطنا علاقة أسرية عميقة.
- بالفعل، هي أسرة مثالية.

لقد طارت الكلمات من ذهني، كنت أحضّر لأن أبدي إعجابي برؤية هذا الدكتور اللامع الذي يشيد به جميع الناس، كنت أود أن أعبّر له عن فخري بالعمل معه، وخالص امتناني لقبول انضمامي إلى فريق عمله، ولكن وقعُ المفاجأة على رأسي شلَّ تفكيري، وأثقل لساني.

جلسنا إلى مائدة الحوار لأحضر أول اجتماع معه، بدأ كل منا يعرض المشكلة التي يعمل عليها، ونتبادل المناقشات حولها، وكنت أنا شاردة الذهن، أسمع الحوار وكأنه بعيد عني، أرد فقط إذا وُجه إليّ الحديث، لم أكن حاضرة، بل كنت مغيبة، فأنا لم أعد أعرف أين أنا، وكيف التقت الحياتان بمنتهى السهولة تلك، فها هي منة وها هو زوجي، فكيف تجمعا سويًّا؟ وإن كان كذلك فما الحلم؟ وما الواقع؟ لم أكف عن التفكير حتى انتهى الاجتماع، ووقعت العقد مع دكتور مراد وأنا أتجنب النظر إلى وجهه حتى لا أنفضح، وبعدها قمنا جميعًا لنستكمل أعمالنا كل في مكتبه، لم يمض وقتًا طويلًا حتى أتت إليّ منة وعيناها تمتلئان بالفضول، سألتني: "ماذا بكِ؟".

- ماذا بي! لا شيء
- هل كنتِ تعرفين الدكتور مراد من قبل؟
- لماذا هذا السؤال؟
- يبدو أنك كنتِ تحتاجين النظر إلى نفسك في المرآة عند رؤيته، لتعرفي لماذا أسأل هذا السؤال.
- لم أدرِ بنفسي حقًّا، ولا أعلم ماذا حدث لي.
- لكني متيقنة أنك تعرفين الدكتور مراد من قبل، قصِّي عليّ ما حدث يجعلك ترتبكين لهذا الحد، الذي لا تستطيعين عنده السيطرة على ذاتك، وقد كنت أراكِ محكمة السيطرة عليها من قبل.
- سأقص عليكِ، ولكن ليس هنا، دعيني أجمع أغراضي ونتحدث ونحن في طريق العودة، أنا حقًّا لم أعد أستطيع الكتمان.

وبعد نحو نصف ساعة، كنا نسير سويًّا لنخرج من المكتب ونعود إلى المنزل سيرًا، وبالفعل رويت لها كل ما حدث لي في حياتي الأخرى التي عرفت الآن أنها كانت مجرد حلم، وأخبرتها أن أكثر ما يحيرني أنني لم أره من قبل، فكيف ظهر لي هكذا؟ بدت علامات الدهشة على وجه منة، وهي تقول لي: "بالفعل الدكتور مراد لديه ابنة صغيرة، أظن أنها في هذا النحو من العمر الذي حلمتي به".

- هل هو متزوج؟

- في الحقيقة هذا الأمر يحتاج لسؤال، لا أعرف تحديدًا حالته الاجتماعية، ولكن يمكننا أن نعرف.
- طالما لديه ابنة، فبالتأكيد سيكون متزوجًا.
- أو ربما مطلقًا أو أرملَ.
- غريب أنكم تعرفون أن لديه ابنة ولا تعرفون حالته الاجتماعية.
- هو لا يتحدث مطلقًا عن حياته الشخصية، ودائمًا يقول لنا إننا عائلته وأسرته، وبقدر ما يتعامل معنا بود واحترام، بقدر ما هو جاد في العمل، وحاسم في الإدارة، ويمنع أي شخص من تخطي الحدود التي رسمها له، فهو يعرف جيدًا كيف يضع الشخص في دائرة محددة، وكيف يضع حدودًا لجميع علاقاته.

أنهينا الحوار ووصلنا إلى المنزل، واستمرت الأحداث تدور كما هي كل يوم، ومرت الأيام وأنا ما زلت أراه في المنام بصورة، وفي المكتب بصورة أخرى، لكني كنت أتجنب ملاقاته أو الجلوس معه طويلًا حتى لا أنجرف وراء شعوري.

## ( ١١ )

"بيري الحقيني!" بتلك الكلمة استيقظت على صوت منة، ولكن ليس كعادتها كل يوم، فكلماتها كانت ممتزجة بصوت آذان الفجر، أفقت لأنظر حولي، لم أجد منة كعادتها جوار سريري، ولكني لا أزال أسمع صوتها الذي يأتي من الخارج، قمت وخرجت لأتتبع صوتها القادم من حجرة عم عبده الذي يبدو نائمًا، وهي تناديه بأعلى صوتٍ لها دون جدوى. أسرعت لألتقط هاتفي وأتصل بالإسعاف، ثم عدت إلى منة لأطمئنها، وتحسست نبضه لأجده لا يزال مستمرًا في ضعف، ربتت على كتفها، وقلت لها: "ماذا حدث؟"، ردت باكية: "لقد سمعته يناديني، فقمت مفزوعة من منامي، وانتقلت إلى حجرته، وجدته يتصبب عرقًا يتمتم بكلمات غير مفهومة، ناديته ففتح عينيه، وهو يتحسس صدره بيده المرتعشة، ثم نظر إليّ وتبسم، ثم أغمض عينيه وكأنه تساقط مني، ثم لم يرد عليّ ثانية".

- لاتقلقي حبيبتي، إنها حالة إغماء، سيكون أمرًا بسيطًا بإذن الله، دقائق وتصل الإسعاف.
- يا رب.

وصلت سيارة الإسعاف ومنة لا تكف عن البكاء والتشبث في يده، كأنها طفلة صغيرة تتعلق في يد والدها، تذكرت مشهدي الأخير مع أبي، وبدأت أشعر بالخوف لأن يتكرر هذا الموقف، لقد أصبح عم عبده أبي الثاني، فهو سندي الوحيد بعد أن تخلي جميع الناس عني، نظرت إلى منة في شفقة وخوف عليها، وحاولت طمأنتها. انتقلنا معه إلى المستشفى وانتظرنا خارج غرفة العناية المركزة، حتى خرج إلينا الطبيب وأخبرنا أنه أصيب بجلطة قلبية، ويحتاج إلى عملية قسطرة عاجلة، ولا بد أن تجرى خلال الساعات القليلة المقبلة حتى لا تحدث مضاعفات، ذهبت إلى إدارة الحسابات لأسأل عن تكلفة العملية، فعرفت أنها تتكلف نحو ٣٠ ألف جنيه دون تكاليف الإقامة، ولا بد من دفعها قبل العملية. توقفت قليلًا عند ما سمعته، كيف لمريض يحتاج لإسعاف عاجل أن ينتظر لحين توفر الأموال؟! إنه مجتمع قاسٍ يهتم بالمادة قبل الروح، وبالنقود أكثر من النفوس، ألم يفكر أحدهم في الذنب الذي سيقترفه طوال حياته إذا مات أحد المرضى لعدم امتلاكه أموالًا؟! أم أنهم اعتادوا ذلك حتى تخدرت ضمائرهم وظنوه أمرًا طبيعيًّا، عجبًا لهؤلاء الذين يجعلهم الله -عز وجل- سببًا لإنقاذ المرضى وتخليصهم من الألم، ثم يتحوّلون من مطيبي الألم إلى مصاصي الجيوب، فهم لا يعرفون حجم النعمة التي وهبهم الله إيّاها، والمصيبة الكبرى أنهم لا يشعرون بتلك الخطيئة التي يرتكبونها كل يوم مع أشخاص مختلفين، فالأشد من الجرم الاعتياد عليه.

عدت إلى منة لأطمئن عليها، فسألتني عن التكلفة، وكان ذهني منشغلًا بكيفية سداد المبلغ خلال ساعات، تذكرت قطع الحلي الذهبية التي حملتها معي قبل مغادرة "الفيلا"، فأخبرتها أنني سأبيع الحلي لإجراء العملية بأسرع وقت، وبالفعل تركتها في المستشفى وذهبت إلى البيت، لكني تذكرت أن عليّ الانتظار، فجميع المحال لا تفتح قبل العاشرة صباحًا، ذهبت إلى المنزل وجمعت الحلي الذي احتفظت به، ثم أحضرت إفطارًا لأتناوله مع منة، وعدت إليها، طلبت مني التحدث إلى المكتب لتقديم اعتذار عن الحضور، وفعلت. مكثت معها حتى الساعة العاشرة، ذهبت إلى محال الذهب لأبيعه، وبالفعل تمكنت من بيعه والحصول على ٥٠ ألف جنيه، وعدت إلى المستشفى، لأسدد النقود المطلوبة، ويدخل أبي الثاني غرفة العمليات، وظللت جوار منة أحاول تهدئتها.

انتظرنا نحو ساعتين أمام غرفة العمليات، حتى خرج الطبيب يطمئننا أنه بخير، ولكنه يحتاج إلى متابعة، وسينقل إلى غرفة؛ لأنه يحتاج للراحة في المستشفى لمدة يوم، سمعت صوت هاتفي يرّن، إنه رقم غريب، أجبت عليه: "مرحبًا".

- مرحبًا أستاذة بيري.
- أهلًا بك، من معي؟
- أنا إسلام زميلك في مكتب الاستشارات الأسرية.
- أهلًا إسلام.

- كنت أود الاطمئنان على منة، علمت أن أباها مريض وهي لا تجيب على هاتفها.
- الحمد لله، والدها بخير، لقد خرج حالًا من غرفة العمليات.
- عمليات؟ لماذا؟
- لقد أصيب بجلطة مفاجئة وأجرى عملية قسطرة.
- أتّم الله شفاءه على خير.

ثم سألني عن اسم المستشفى الذي أجرى العملية بها، وبالفعل أخبرته عنها، وأبلغني أنه سيأتي بعد انتهاء العمل. دخلت إلى منة التي ما زال يبدو عليها القلق، وقلت لها: "حبيبتي لا تقلقي، لقد طمأننا الطبيب، وساعات ويخرج معنا ويعود إلى حياته الطبيعية".

- أخشى عليه كثيرًا يا بيري، ليس لي سواه، فهو كل عائلتي، وسندي الوحيد، لا أستطيع العيش من دونه، ستنهشني الحياة بظروفها القاسية، فهو من كان يمنحني القوة لمواجهة كل معوقات الدنيا، ويوهبني الرضا لأستطيع تحمل كل ما لا أستطيع مواجهته.
- أعطاه الله الصحة وأطال عمره يا حبيبتي، وسيعود كما كان وأفضل، أنا أشعر أنه بخير، وسيظل معنا، فأنا أيضًا أشعر أنه أبي، ولا أنسى هذا اليوم الذي فتح لي ذراعه فيه بعد أن تخلى عني جميع من حولي.
- أشكرك بيري على ما فعلتِ لأجلي.

- لا تقولي ذلك، أنا لم أفعل أي شيء، فهو جزء بسيط من فضله عليّ، فقد منحني حياة أخرى بعد أن شعرت أنني انتهيت للأبد، وأهداني أختًا رائعة بكل المقاييس.
- بل أنتِ أجمل هدية أرسلها الله لي.

انتبهت إلى طرقات هادئة على باب الحجرة، إنه إسلام يحمل باقة من زهور البنفسج، قلت له: "تفضل". فنظرت منة إليه والدموع تتلألأ في عينيها، فأهداها الورد، وقال: "حمدًا لله على سلامة والدك".

- الله يسلمك.
- إن شاء الله سيقوم لنا بالسلامة، حتى أقرأ معه الفاتحة.

أبدت منة تعجبها من كلامه دون أن تنبس ببنت شفة، ثم عادت إلى فراش والدها لتشعر بأنفاسه وتطمئن بها، لحظات قليلة واستفاق عم عبده، ليتبسم لها بسمة تعيد بداخلها الحياة التي قد أوشكت على التوقف من فرط القلق والريبة. اقترب إسلام منه وسلّم عليه، وقال: "لا أريد الإطالة عليكم، ولكن حتمًا سآتي إليك لزيارتك في المنزل يا عمي بعد تحديد الموعد المناسب". ابتسم له عم عبده، ورد عليه: "إن شاء الله يا بني، تشرف منزلنا المتواضع".

رحل إسلام وهو يشير إليّ، فهمت أنه يرغب في الحديث معي، خرجت خلفه، فأخبرني أنه ذهب إلى الحسابات فعرف أننا سددّنا جميع المصروفات، وعرض عليّ أن يترك معي مبلغًا، لربما نحتاجه ولكني رفضت

بشدة، وأبلغته أننا نمتلك ما نحتاجه، وإذا تغير الأمر سألجأ إليه بالطبع، وعدت لأجلس مع عم عبده الذي كنا نود إراحته من أي شيء حتى الكلام، وفي المساء تركت منة معه، وعدت بمفردي إلى المنزل، لقد كان يومًا ممتلئًا بالأحداث المؤلمة، ولكن وجود إسلام طمأنني لأنه سيظل معها، ويواجه أهله من أجلها، ربما لم يعد لدي ثقة مطلقة في الأشخاص؛ لأن فادي رافقني من قبل ثم تخلى عني، ولكني أشعر بصدق مشاعر إسلام. وصلت إلى "كوبري الخشب" وصعدت لأول مرة بمفردي، تأملت حال الناس، وكيف ننتقل من منطقة يصنّفها بعضهم على أنها راقية، إلى منطقة شعبية بعبور "كوبري"، إنها مصر التي تجمع جميع الطبقات، ولكنها تفصل بينهما بـ"كوبري"، أمتار قليلة تفصلك عن منطقة مختلفة تمامًا، تنتشر بها "التكاتك" وبعض العشوائية، وفي المقابل تنخفض بها أسعار العقارات والسلع والفاكهة، أغلب البشر هنا على وجوههم الطيبة، فتجار الفاكهة ينتشرون على "الكوبري" برضا، فبالتأكيد هؤلاء لجئوا إلى"الكوبري"؛ لأنهم لم يجدوا مأوى يحنو عليهم غيره. لقد كنت قديمًا أضجر من المناطق الشعبية، والباعة الجائلين، وشاغلي الطرق، وكنت أرى ضرورة إزالتهم، ولكن عندما مررت بظروفهم نفسها، وشعرت للحظة أنني بلا مأوى، شعرت بهم، فهم لم يختاروا لأنفسهم الإهانة وأن يجلسوا في الطرقات، ولكن ليس لديهم ما يحفظ كرامتهم من بطش الناقصين، ويختارون لأنفسهم محلًّا. على الرغم من قسوة ما مررت به سابقًا إلا أنني سعيدة به؛ لأنه

علّمني كثيرًا في الحياة، وجعلني أكثر وعيًا لما يدور حولي، وأكثر سعة للشعور بغيري. نظرت حولي لأرى قضبان السكك الحديدية تحت "الكوبري"، رجعت بخيالي إلى الماضي، فربما كان هناك مزلقان وحدث به حادث طرق، فجعلوه هكذا، لا أعلم حقيقة ذلك، ولكن خيالي قادني إلى تلك الفكرة، أتعجب لأنهم يرهقون المارة في الصعود لعبور الكوبري، في حين أن العبور ربما يكون أرفق بهم، تأملت وجوه الناس حولي، منهم من يسير طبيعيًّا، ومنهم من تظهر على وجهه علامات التكدر، ومنهم من يسير بصعوبة، ومنهم من يبدو عليه الغضب، ومنهم من يظهر عليه التعب ويمتلئ وجهه بالرضا، وجوه مختلفة، وأزياء متعددة الأذواق، وانفعالات متباينة، وكل ما يجمعهم هذا الكوبري الذي يعبرونه.

تذكرت شوارع الزمالك وهدوءها، ربما كان السير أكثر يسرًا؛ لأنك لا تنتظر طابورًا أو يعيقك زحامًا بسبب سوء تنظيم المارة، ولكن هنا شيء من الألفة والدفء لم أكن أشعر به هناك حيث كانت المشاعر باردة، وجميعهم يفكرون في مصلحتهم، ربما هنا أيضًا بعض البشر هكذا، فمع الأسف سادت آفة الأنانية هذا العصر، ولكن يكفي أن أغلبهم هنا يتحلّون بالرضا.

أكملت الطريق سيرًا حتى وصلت إلى الشقة، فلأول مرة أعود إلها بمفردي، وأجدها خاوية، انتابني للحظات بعض القلق لكنه سرعان ما انتهى، بعد أن فتحت النافذة التي تطل على السماء الصافية، جلست أتأمل

فيها، وتذكرت أنني لم أتناول طعامًا منذ الصباح، وتركت الأكل الذي أحضرته لمنة حتى يعينها على السهر مع والدها. نهضت لإعداد الطعام، وقررت أن أتناوله تحت رعاية السماء، وكأنني أجلس في حديقة "الفيلا" أمام حمام السباحة تحت السماء، لقد تعلمت من عم عبده وابنته حب الطبيعة التي دائمًا ما تحنو علينا عندما يغضب علينا الكون كله، كان عليّ أن أستريح حتى أستطيع الذهاب إلى العمل في الغد، ولكنني قررت أن أعيد ترتيب الشقة، وأن أرتبها جيدًا، وأرش ماء بملح كما كانت تفعل منة حتى نطرد الطاقة السلبية، ونزلت لأشتري باقة وردٍ لتمنحهم البهجة عندما يعودون، وتسوقت قليلًا في السوق الموجودة في تلك المنطقة على مدار اليوم، فاشتريت بعض الفاكهة والخضروات والسلع الغذائية التي نحتاجها، ثم صعدت وفعلت كل ما قررته، ولم أشعر بالإرهاق سوى بمجرد الانتهاء منه، فنحن عادة لا نحس بالتعب سوى عندما نستريح. ذهبت إلى الفراش لأريح بدني قبل الذهاب للعمل في الغد، ثم العودة إلى المستشفى لأصطحبهما إلى بيتهما.

تذكرت مراد الذي كنت أراه زوجي في الحلم، أشعر أنني بحاجة شديدة إلى الراحة في حضنه، حتى أشعر بالأمان، غمضت عيني وأنا أنتظر رؤيته. فتحت عيني لأجده يتحسس شعري، ويقول لي: "اهدئي يا حبيبتي، سيصبح كل شيء على ما يرام".

- لقد اشتقت إليكَ كثيرًا، أريدكَ دائمًا معي.
- أنا معكِ حبيبتي دومًا، حتى إن غبتِ عني أظل أتابعك وأشعر بك، وأنتظرك تأتين إليّ.
- وأنا دائمًا بحاجة إليك حبيبي.

اجتذبني أكثر إلى صدره، وطبع على مقدمة شعري قبلة، وخيّم عليّ بهدوئه، وأنفاسة الدقيقة المنتظمة، حتى أخذني النوم.

## ( ١٢ )

تيقظت على صوت المنبه، افتقدت رؤية ابتسامة منة في الصباح، ودعوتها لي لتناول الإفطار، ذهبت المكتب لأول مرة مفردي، فور وصولي جاءني إسلام ليطمئن على منة ووالدها، بعدها جاءني الدكتور مراد يغمر وجهه الحنان الذي اعتدت عليه في المنام، ليسألني عن حال والد منة، ويخبرني أنه سيخصص لها مبلغًا لمعاونتها في أزمتها. رأيت الشخص الحاني الذي أراه في المنام، ولم أره في الحقيقة منذ أن قابلته، فقد كان جاد الطباع دومًا، وكنت أبادله الجدية حتى لا تبدو عليّ مشاعري الداخلية، ولكني كنت سعيدة برؤيتي هذا الوجه المطمئن، وأحكمت القبض على مشاعري التي كادت أن ترتمي بين ذراعيه.

أخبرني موظف الاستقبال أن هناك شخصًا ينتظرني، بالتأكيد عميل جديد، أبلغتهم بترحيبي به فليتفضل بمكتبي. لا يزال هناك دقائق حتى يدخلوا لي بياناته، فتحدثت إلى منة لأطمئن على أبي الثاني، وشعرت من صوتها بارتياح، وأنه أصبح أكثر تحسنًا، ارتاح قلبي، وظللت أشكر الله على إنقاذه لنا، حتى أنبهني صوت طرقات الباب قبل أن ينفتح ليدخل شخص ما، التفت إليه لأراه بظهره وهو يغلق الباب، هذا الشخص ليس غريبًا

عني، ظللت أنظر إليه حتى استدار لأرى هذا الشخص غير المتوقع، فادي! ما الذي جاء به إلى هنا؟! ما الذي ذكّره بي الآن؟! وكيف عرف مكاني؟! نظرت إليه بتجهم، وهو يقول لي: "كيف حالك يا حبيبتي؟".

- حبيبتك؟! كيف تريد مني أن أصدقك ثانية؟! أتظنني بلا عقل؟!
- لا، بالعكس أنتِ أذكى من رأت عيني، ولكنني فعلًا ما زلت أحبك.
- حقًّا؟! أخبرني لماذا جئت إلى هنا؟ ألديك مشكلة تريد علاجها؟
- لدي حلم أريد تحقيقه.
- أي حلم؟!
- شراكتنا يا حبيبتي.
- أولًا: لا تقل حبيبتي مرة أخرى، وإلا سأنهي الحوار فورًا، وأعتبر اللقاء قد انتهى.
- أرجوكِ لا تغضبي مني، سأفعل كل ما تريدين، ولكن اهدئي.
- حسنًا، قل لي ماذا تريد؟
- جئت إليكِ كما وعدتك.
- كما وعدتني؟! أتصدق نفسك حقًّا؟ أنت جئت لغرض آخر في نفسك، افصح عنه خيرًا لك، كن صريحًا ولو لمرة واحدة في حياتك، فلن أجد مكانة أدنى من تلك التي وضعتك بها حتى أنزلك لها.

- أرجوكِ لا تكوني قاسية إلى هذا الحد، لقد اعترفت بخطئي، وجئت إليك لتصفحي عني.
- وأين زوجتك صديقة عمري؟

أجاب وهو يحني رأسه ونظرات الخزي تتغلب عليه: "لقد تزوجنا".

- جميل، ألف مبروك، إذن ما المشكلة؟
- لم أشعر معها بأي شيء، لقد تزوجتها رُغمًا عني.
- رغمًا عنك؟! كيف؟
- لقد أخفيت عنك الحقيقة في أكثر وقت كنت تحتاجين إليّ فيه، ولكننا كنا نعاني من ضائقة مالية، وفكّر أبي في أن موضوع الشراكة مع والدك – رحمه الله– ستنقذه من أزمته، ولكن عندما عرف ما حدث، وجهّني لأن أتزوج نجوى حتى تساعدني في بناء مستقبلي وتحقيق أحلامي، رأينا بها المستقبل وتحتّم عليّ أن أبذل ما في وسعي لإنقاذ أبي، كانت هي طوق النجاة، وكنت أعلم أنها معجبة بي من فترة طويلة، فاضطررت لإتمام تلك الخطوة.
- وهل عرفت فجأة أنها معجبة بك؟ وهي رضيت بك وهي تعلم أننا كنا مرتبطين؟ وفي تلك الظروف التي مررت بها؟!
- لا، لم يكن ذلك مفاجأة بالنسبة لي، منذ سنوات ونحن نتواعد، واعترفت لي بحبها.

- منذ سنوات وأنت تعرف ولم تخبرني؟! أم كنت تخونني معها وتبادلها الشعور؟

ربما ارتجف قلبي؛ لأنني تيقنت أنني حقًّا كنت مغفلة، خُدعت في أقرب الناس إليّ، فقد كانت بوصلتي معوجّة، ولكني لم أفاجأ أو أندهش، فقد عوّدت نفسي على توقع كل شيء. قاطع تفكيري صوت فادي المضطرب وهو يقول: "في الحقيقة، كنت أقول لها إنني أبادلها الشعور، ولكن ليس من قلبي، ولكن أمي كانت تميل لها ولعائلتها، بسبب الشراكة التي كانت بين الأسرتين، فكنت أريد إرضاءها، ولكني كنت أعافر من أجل إقناعها أنك أفضل منها، وأن قلبي معكِ أنتِ، وعندما حدث ما حدث لم يعد بإمكاني أن أختار، ونفذت فقط ما يقولونه.

- يا لها من تضحية عظيمة، تستحق أن أنحني لك عليها!
- أنا لا أقول لك الحقيقة حتى تسخري مني.
- لا يعنيني كل هذا، أخبرني لماذا جئت إليّ الآن؟
- أنا غير مرتاح مع نجوى، منذ زواجنا وهي تعايرني بأنها أنقذت عائلتي ومستقبلي من الضياع، أشعرتني بضآلتي أمامها وهي من كانت تتمنى فقط حبي.
- حقها، طالما قبلت مساعدتها.

- سدد والدها عن أبي قيمة قسط القرض؛ لأنه كان قد وضع كل ثروته في مشاريع ضخمة ولم تكتمل وقتها، وفي المقابل وقّع أبي له على إيصال أمانة، وبالفعل تمكن من سداده، وانتهت الأزمة، أما الآن فأنا الوحيد المتورط، كتبت لها مؤخر صداق مرتفع الثمن، ووقعت على إيصال أمانة، وأعيش حياة لا أريدها، ومع زوجة لا تحرك مشاعري.
- لقد اخترت لنفسك كلذلك، ماذا تريد مني الآن؟
- أريد مساعدتك.
- كيف؟
- لقد أسسنا مكتب علاقات أسرية في الزمالك، ولكنه لم يعمل، فمن يريد الذهاب لمكتب يختار شخصًا معروفًا، وعرفت أن اسمك قد ذاع صيته سريعًا في هذا الوسط، وإذا شاركتني سينتعش المكتب، وننجح سويًّا.
- الآن ظهر الحق، أعتذر لك عن أنني أسأت لك منذ قليل أو سخرت منك، فأمثالك لا يمكن أن أضيع دقائق من وقتي في الجلوس معهم، لقد انتهى اللقاء.

الآن فقط شعرت بحكمة الله –عز وجل– في أن يبعدني عن هذا الشخص الانتهازي، الذي لم يعرف الحب يومًا، لا بد أن أحمد الله على ما حدث، فحقًّا ربما ينجيك جرح من موتٍ محقق، اليوم عادت إليّ كرامتي،

وتيقنت أنني كنت أحب شخصًا لم أعرفه مطلقًا، بعدما زالت الغشاوة من أمام عيني، وتيقنت من كرمه الشديد في وضعي بتلك الظروف التي جعلتني أعمل هنا، حتى أبدأ الطريق من أوله ويعرفني الناس قبل أن أفكر في فتح مكتبي الخاص. قاطع حديثي مع نفسي كلمات تخرج من فم فادي بخضوع وتذلل: "أرجوكِ لا تحكمي عليّ هكذا، لا تظلميني يا حبيبتي، فأنا أحبك". سماع تلك الكلمة مرة ثانية أفقدني أعصابي، ليس لوجود رابط بيننا، فقد تمزّق منذ أن رأيته نذلًا، ولكن لأنني شعرت بخيانة عظمى لزوجي عندما أسمع من شخص آخر، لا يمكن مقارنته به، تلك الكلمة، ولأنني رأيته وضيعًا لا يستحق سوى تلك المعاملة. وجدتني أربد وأرتعد وأضرب كفي على المكتب بعنف شديد، بمقدار سخطي من هذا الكائن الذي خُدعت فيه من قبل، وارتفع صوتي ليجلجل في أروقة المكتب دون أن أدري: "اخرج من مكتبي أيها الخسيس، لا أريد أن أراك ثانية، ولا أن أسمع كلمة أخرى، اغرب عن وجهي فورًا"، حاول فادي تهدئتي وهو يقول في خنوع: "أرجوكِ اهدئي، فأنا حقًّا أحبك، ولم أحب غيرك".

- أتحبني أنا أم تحب نجاحي، اليوم تأتي لتستغلني كما فعلت بالأمس، وتريد أن أطير فرحًا بهذا العرض الزهيد.
- أنا لم..

قاطعته قبل أن يستكمل: "اخرج من مكتبي فورًا أيها الأحمق". خرج فادي محني الرأس، يبدو على وجهه الحسرة واليأس، تحرك بخطى حثيثة

نحو الباب، كسارق يحاول الهرب قبل أن يقبض عليه، انشرح صدري بهذا المشهد الذي يعكس حقيقة شخصيته، فتنفست الصعداء. فجأة، سمعت طرقات بسيطة على المكتب، قبل أن يدخل عليّ مراد، شعرت أنه جاء في وقته فكم أشتاق إلى لطفه، وأحتاج احتواءه في هذا الوقت بعد أن فقدت أعصابي ولا أستطيع استعادتها، بقدر ما أحتاج إلى أن أرتمي في حضنه، وأهرب بعيدًا عن كل تلك الضوضاء التي تمكنت من عقلي. نظرت إليه باشتياق رغمًا عني، فوجدت علامات الغضب تطفو على وجهه، استعدت ما حدث منذ قليل، يبدو أنه سيستفسر عن سبب علو صوتي، قال لي بأسلوب حاد للغاية: "لا بد أن تعرفي أن هذا المكتب له قواعده التي لا يجب لأحد أن يخترقها، أما الأمور الشخصية لا بد أن تتركيها خارج هذا الباب، وإلا فلا يمكن أن تكوني استشارية ناجحة".

- ولكن...

- لا أريد أن أسمع منك أي شيء، لقد بنيت سمعة هذا المكتب على مدار تاريخ طويل، ولن أنتظر حتى يفسد ذلك أي شخص مهما كان.

- أتقول لي ذلك؟ أنا من أفسد المكتب؟!

- إذا لم تستطيعي تملك أعصابك داخل هذا المكتب، فاخبريني حتى أبحث عن بديل.

وقعت تلك الكلمات الصارمة على قلبي كالجمرات، فوجدت دموعي تنهمر مني، لا لأنها تعنيف من مديري في العمل، ولا لأنه اتهمني

بالفشل، ولا لأنه عليّ أن أحفظ كرامتي وأرحل، ولكن لأن اليد الوحيدة التي كانت تمتد إليّ لتطمئنني، اليوم تمتد عليّ لتذبحني، ليتني مت قبل هذا. بدأت ألملم أشيائي لأستعد للرحيل بلا عودة، لا أعرف ماذا سأفعل بعد ذلك، يمكنني أن أتقدم لمكتب آخر أو أن أعود إلى نقطة صفر كما كنت، إنها دنيا دنية، تسعدك فقط لتوجعك أكثر بصدمة جديدة، لقد كنت أهرب من حياتي تلك إلى حياتي معه، فكيف أهرب منه إليه؟! لقد ضاقت بي الأرض بما رحبت، وضاقت عليّ نفسي، ولم يعد لدي أي ملجأ سوى أن أذهب إلى عم عبده وابنته ملاذي الوحيد، حملت جميع أغراضي، ومسحت دموعي وحاولت أن أظهر بشكل يبدو فيه الكبرياء، خرجت ورأسي مرفوعة وداخلي بحر من الدموع، وجدت الموظفين ينظرون إليّ بشفقة، يحاولون مواساتي، وإقناعي بالانتظار، لم أتوقف عن قراري واستكملت سيري، وجدت صوت إسلام: "انتظري يا بيري"، توقفت خارج باب المكتب، ورددت عليه: "نعم".

- هل يمكنني أن أطلب منك الهدوء، وإخباري ماذا حدث بينكما؟

- لا شيء، لقد استوعبت جيدًا أنه غير مرحب بوجودي هنا.

- بالتأكيد لم يقصد ذلك، إنه يشيد بك دائمًا، ويتحدث عنك كنموذج مثالي، لا يمكن أن يقول ذلك، ربما كانت لحظة انفعال ليس أكثر.

- لم يعد مهمًّا ما يقصد، فلن يغير في الأمر شيئًا.

- هل ستذهبين إلى المستشفى؟

- نعم.
- سآتي معك، هل تسمحين لي بإيصالك؟
- حسنًا، ولكن لدي رجاء واحد.
- ماذا؟
- لا تخبرهما بما حدث، يكفي ما بهما.
- أنتِ إنسانة جميلة.
- أشكرك.

ركبت مع إسلام سيارته، وذهبنا إلى المستشفى للاطمئنان على عم عبده، لقد أصبح أفضل حالًا، وسعد لرؤيتنا، وعادت لبشرته النضارة، وردت الروح في جسد منة، اصطحبنا إسلام في سيارته بعد أن أقنع عم عبده بإيصاله إلى المنزل، لقد أحسّ أن هناك شعورًا بينه وبين ابنته، وارتاح إليه، فكان يتحدث له بأريحية. وصلنا المنزل وطلب إسلام أن يعود لزيارته للاطمئنان عليه، ووافق عم عبده على طلبه مرحبًا، في حين كانت منة مرتبكة تخشى أن يضيع منها الأمل بعد أن تتشبث به، فما أقسى شعور أن ينقطع أمامك حبل الأمل بعد أن تعلقت به.

## ( ١٣ )

دخلنا ثلاثتنا إلى البيت، فتفاجئا بالزهور المبهجة التي كانت تملأ أركان الشقة، ورأيت في عينيهما لمعة فرحة تعكس انتعاش صدرهما، سعدت لأنني كنت سببًا في بث تلك الروح الطيبة داخلهما، وأنا أجتهد لأخبئ بركان الغضب الذي يشعل وجداني. اتجهت إلى المطبخ لإعداد الغداء لنا، لأترك منة مع أبيها ترعاه وتطمئن بوجوده معها، قررت طهي طعامًا صحيًّا لنا جميعًا كما وصف الطبيب لأبي الثاني، حتى لا يشعر بأنه ينقصه عنا شيئًا، انتهيت منه وانتقلت به إلى حجرة بابا عبده، حتى لا أجهده في التنقل، فسمعته يقول لي: "سيجبر الله بخاطرك يا بنيتي"، نظرت إليه فوجدته بالفعل يوجه لي الكلام، فاستكمل: "لا تحزني وانتظري هبات السماء". لا أعرف كيف أحسّ بي دون أن أتحدث، ولكن لم تكن تلك المرة الأولى، يكفي أن الله منحني تلك الأسرة الصغيرة التي تحتويني وتشعر بي دون أن أنطق، قلت له: "أنتما خير هبة لي".

انتهينا من تناول الغداء، وقامت منة لتعد الشاي، فدخلت لها وعرضت عليها أن تتركني أعدّه، وتقدم هي لبابا عبده بعض الفاكهة، فرددت: "بل ادخلي أنت بالفاكهة له، فقد تعبتِ كثيرًا اليوم وأمس في الترتيب وإعداد الطعام، سأعدّ لك الشاي ونجلس لأعرف ما الذي أطفأ

بريق عينيك". ذهبت بالفعل لأعطيه الفاكهة، ودعا لي أن يمنحني الله القوة والصبر حتى أرى عجائب قدرته في إراحة ذهني ونفسي وفؤادي، نظرت إليه وعيني تمتلئ بعلامات التعجب من تلك الدعوة التي مست قلبي، وجبرت خاطري، فتبسمت، قال لي: "لقد أنقذتِ حياتي دون تفكير، فسيزيح الله همك دون عناء.".

عدت إلى منة التي لا أعرف كيف أحست بي، فأنا بالفعل منطفئة، اضطررت لإخبارها ما حدث، إلا أنها حاولت إقناعي بأنه يستحيل أن يقصد ما فهمته: "ربما يكون حادًّا في العمل، ولكنه يتفهم المواقف الإنسانية، وإذا عرف حقيقة الأمر سيعتذر إليك.".

- أنا لا أريد منه اعتذارًا، فليتركني أواجه مصيري، أما رحيلي من المكتب فهذا قرار نهائي لا رجعة فيه، حتى أحفظ ما تبقى من كرامتي.
- أعلم أنك ما زلتِ تحت تأثير الموقف، ولكن كل ما أطلبه منكِ ألا تتعجلي.

لحظات قليلة ودق جرس الباب، نظرت من العين السحرية، إنه إسلام يحمل باقة كبيرة من الورد الأحمر، طلبت من منة أن تفتح هي الباب، لتتفاجأ بحبيبها يعطيها الورد، وينحني على الأرض ليطلب منها الزواج وهو يمد إليها خاتمًا، نظرت خلفه لأجد أباه وأمه يتقدمان. أدخلتهم غرفة الاستقبال، وأسرعت لأخبر بابا عبده الذي طلب مني إدخالهم له، وبالفعل

دخلوا وقمت لإعداد العصير لهم، عدت لأجد بابا عبده يرحب بعرضهم الزواج من ابنته. قالت أمه لمنة: "ربما كنت سأتذمر إذا أخبرني إسلام أنه يريد الزواج منك قبل ذلك، ولكن عندما رأيته يسعى جديًّا لمزيدٍ من النجاح، وإثبات ذاته حتى تمكّن من شراء شقة دون مساعدتنا، تيقت أنها تلك المرأة العظيمة التي تدفع رفيقها إلى طريق المجد، فلا يمكن أن يفرّط فيها". ووجه والد إسلام كلامه إلى بابا عبده: "لقد بدأت حياتي من الصفر، وكنت أخشى أن يعتمد ابني عليّ، وعندما أخبرني برغبته في الزواج من ابنتك، عرفت أنه لا يسعى وراء المظاهر الكاذبة، وإنما يود الكفاح، وصعود السلم من أوله، وزاد تحمسي لها عندما رأيت كم الحب لك في نفوس كل من يعرفك.". رأيت منة سعيدة، وسعدت لها فهي تستحق الأفضل، ولكنها أسرعت لتقول: "ولكن لي شرط واحد".

رد إسلام: "ماذا؟"

- أريد أن يعيش أبي معي.
- طبعًا دون نقاش، يشرفنا ويشرف البيت، فلنقرأ الفاتحة

قاطعنا في قراءة الفاتحة صوت الجرس، أسرعت أنا لفتح الباب حتى لا أفسد عليهم فرحتهم، إنه مراد، عندما رأيته اشتد غضبي وتذكرت ما حدث بالمكتب، فنظرت بعيدًا عنه، فأنا لا أريد الحديث معه.

- هل يمكنني التحدث معك؟ أعتذر بشدة عما بدر مني اليوم، ولكن لم أتوقع أن تتخذي هذا الموقف العنيف.

- وهل كان عليّ أن أنتظر حتى تطردني؟ عذرًا فلي كرامة هي لي كل شيء.

- أريد أن أتحدث معك، أيمكنني أن أطلب منك أن ترتدي ملابسك نفسها التي جئتِ بها إلى هنا لأول مرة؟

توقفت عند تلك الجملة الغريبة: "ماذا تقصد بالملابس التي جئت بها هنا؟ لماذا؟"

- ارتدي الثياب نفسها التي جئت بها إلى هنا لأول مرة بعد وفاة والدك، وسأشرح لك كل شيء.

وبالفعل، ارتديت ملابسي التي تركت بيت أبي بها، وأنا أفكر في سر هذا الطلب العجيب، يبدو أنه عرف حكايتي، أو يعرفني مسبقًا، لا داعي لإرهاق ذهني بالتفكير أكثر من ذلك، ستنكشف الأمور تلقائيًّا. وأبلغت عم عبده قبل أن أخرج معه، وركبت معه سيارته، دون أن يتحدث، تابعت الطريق بعيني وذهني يرحل بعيدًا عن هذا الطريق، تارة يذهب إلى ما حدث من مراد في المكتب فيشتاط وجداني غضبًا، وتارة يسعى لتخمين سبب مجيئه إليّ، ولماذا طلب مني أن أرتدي ملابسي نفسها في ذاك اليوم، وتارة يأخذني إلى يوم الحادث، وكيف أعاد لي الله الحياة مرة أخرى بعد أن فقدتها. وعاد ذهني مرة أخرى لأنظر إلى مراد، خطفتنى ملامح وجهه التي تنطبق مع من رأيته في منامي، إنه هو بحنيته وعاطفته الجارفة وعينيه الجذابة التي تدفعني إلى التعمق فيها، هل يمكن أن يتحقق الحلم ويصبح حقيقة؟ لا يمكن

ذلك، عليّ الاستفاقة من تلك الأوهام، عادة سيأخذني معه إلى مكان هادئ ليعتذر لي عما بدر منه، ويستفهم مني عن سبب ذلك، أو ربما يتحدث إليّ في صميم عملي، كفاني تفكيرًا، دقائق قليلة وأعرف كل ما في الأمر.

انتبهت إلى الطريق ونحن أعلى "الكوبري" في مدخل الزمالك، لم آت هنا منذ الحادث، شردت بعيدًا إلى لحظات النهاية، رأيت الدم المبعثر على الطريق، وشكل أمي وهي محمولة على الأكتاف، وحضن أبي الأخير، رأيت تفاصيل هذا اليوم المزدحم في ثوانٍ بسيطة، قبل أن أستفيق على توقف السيارة، لأنظر حولي وأجد نفسي أمام بيتنا القديم. فجأة، شعرت أن توازني قد أختل، أين أنا؟ ومن أعادني بالزمان إلى الخلف، أهذا حقًّا بيت أبي المنتزع مني؟ أم أنني أحلم؟ أم أنني كنت أحلم طول تلك الفترة وأبي لا يزال بالداخل وقد اقتادني مراد إليه؟ أم هو بيت مراد الذي أراه بالمنام؟ لم أعد أدرك أين أنا في الواقع أم الحلم! نظرت له بتعجب، فهمس إليّ: "ستفهمين كل شيء..". واصطحبني كطفلة صغيرة تسير متشبثة بيد أبيها، دخلت فوجدت القطة بوسي تجري نحوي وكأنها تألفني، ثم نظرت لأرى جودي تقبل عليّ وتعانقني، عدت لأنظر إليه مستفهمة عما يحدث، وأسأل نفسي هل انتقلت إلى الحلم دون أن أدري؟! أم ماذا حدث؟ ربما غفوت وأنا في سيارته. تنبهت إليه وهو يقول: "لقد اشتريت هذا البيت عندما عُرض في المزاد بكل مقتنياته، فكم تمنيت منذ صغري أن أمتلك بيتًا كهذا، يطل على مياه النيل المبهجة، ورأيتها فرصة ذهبية لأن أحقق حلمي، ولكن عندما

دخلته للمرة الأولى تفاجأت أن صاحب البيت لم يجمع جميع أغراضه بعناية، وعندما سألت عرفت تلك الفاجعة التي أحلت بسكانه، استوقفتني صورتك تلك المعلقة في مواجهة المدخل، جذبتني عيناك منذ الوهلة الأولى، وجدت بهما شيئـًا لا أفهمه، وعندما تفحصت المنزل جيدًا، وجدت صورك تغمر جميع أنحائه، حتى على الطاولة جوار سريري، اعتدت النظر إليها كل يوم، صباحًا ومساءً حتى وقعت في غرامها، عرفت حجرتك دون أن أسأل، فتشت بها جيدًا لأجد كتاباتك ومذكراتك التي خطفتني إلى عالمك، قرأت أحلامك التي كانت هي أحلامي، لمست مشاعرك الجياشة التي اقتحمت فؤادي بلا استئذان، أصبحت مدمنًا لصورك حتى شعرت ابنتي الصغيرة وبدأت ترسمها، وتحبها مثلي، حتى رسمتنا معًا في يوم كعريس وعروسة، لا أعرف كيف أحست بمشاعري، ولكنها إنسانة ناضجة، ليس كما ترينها، وانتقل هذا الإحساس إلى القطة التي أصبحت هي الأخرى تداعب صورتك، فكأن روحك التي عاشت هنا ذكرياتك العطرة، ما زالت تغمر أرجاء المكان بالحب والألفة."

تساؤلات عديدة دارت في ذهني، ولكن المفاجأة سيطرت على جوارحي، فلم أستطع النطق، هل يمكن أن يحدث هذا حقًّا؟ هل يمكن أن تتواصل أرواحنا قبل أن تتلاقى أجسادنا؟ كيف حلمت به في الوقت نفسه الذي كان يفكر بي فيه؟ إنها القوة الروحية التي لا يمكن تفسيرها. أحسّ مراد بتساؤلات عديدة تدور داخلي، فنظر إليّ في لين، وقال: "أعلم أنك

تندهشين من كلامي، فقد ترددت كثيرًا قبل أن أواجهك، ولكن غيرتي الشديدة عليك اليوم، وأنا أسمع شخصًا آخر يقول لك أحبك حتى إن كنت حانقة عليه، دفعتني إلى ذلك، وعندما عرفت وأنا خارج من مكتبك في المرة الأولى أن فادي الذي كنت تكتبين عنه في مذكراتك كلمات شعر، قد أتى لزيارتك، لم أتمالك أعصابي. نعم، كنت عنيفًا معك ليس لأنك قصرت في العمل، أو انتهكت قواعده كما قلت، فقد كنت أستعد لأجعلك نائبتي، ولكن غيرتي قادت لساني لتلك القسوة التي لن أغفرها لنفسي أبدًا، فقد عذبني قلبي بعنف حتى قادني إلى عنوانك الذي دونتيه في أوراق العمل، وقررت أن أقصّ عليك كل شيء، وأعرض عليك شراكتي في الحياة والعمل، دون أن أفكر في رد فعلك، ولا يهمني مهما كانت قسوته فهو حقك، ولن ألومك إن اتهمتِني بالجنون؛ فليس هناك تفسير آخر يبدو منطقيًّا".

- لن أتهمك بالجنون، ولكن لدي سؤال واحد.
- ما هو؟
- أين والدة جودي؟
- لقد توفيت منذ مولدها، ومنذ ذلك الوقت وقلبي خاوٍ لم تدخله غيرك أيتها الصورة البديعة، والروح الطيبة.

تبسمت وعاد بريق عيني يتوهج، وقلت له: "أنت تلك الهدية التي أنتظرها".

- أيَّة هدية.
- هدية الله.
- كنت أظنك ستنهالين عليّ بالاتهامات، وتنعتينني بالجنون، ولكن رد فعلك أدهشني حقًّا، أيمكنك أن تفسري لي ذلك؟
- ليس هناك أمرًا عجيبًا، يبدو أنني أكثر جنونًا منك؛ فأنت أحببتني بعد أن رأيتني، ولكني.. أحببتك قبل أن أراك.

## رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.